نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

تأليف
الشيخ محمد الخضرى

راجعه وحققه
أحمد محمود خطاب

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الخضري ، محمد .

نور اليقين عوامل في سيرة سيد المرسلين / تأليف محمد الخصري راجعه و حققه أحمد محمود خطاب . ـ ط٢. ـ المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٢٦٤ص ، ١٧x٢٤سم .

تدمك 7 ـ 287 ـ 290 ـ977

١ـ السيرة النبوية . أ ـ خطاب ، أحمد محمود (مراجع ،محقق)

ب ـ العنوان .

٢٣٦

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٦/٩٣٩٢



مقدمة المؤلف

نحمدك يامن أوضحت لنا سبيل الهداية ، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية .

ونصلى ونسلم على من أرسلته شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يتبعون من الله الفضل والرضوان، والأنصار الذين آووا ونصروا،وبذلوا لإعزاز الدين مـاجمعوا وما ادخروا .

أما بعد . . فيقول محمد الخضرى ابن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى .

كنت أجد من نفسى منذ النشأة الاولى ارتياحا لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين ، وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب وأنصح معلم .

وكنت أرى فى تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده أعظم مرب لأفكار المسلمين، فإنه يدلهم على ما يجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم، وخصوصا ما يتعلق بالحكم من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة ، وما يتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم ، وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يدا على من سواهم.

فكنت أجد من قراءتها ارتياحا عظيما وكانت نفسى كثيرا ما تأسف على ترك المسلمين لها ! فقلما أجد من يشتغل بها ولكنى كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع .

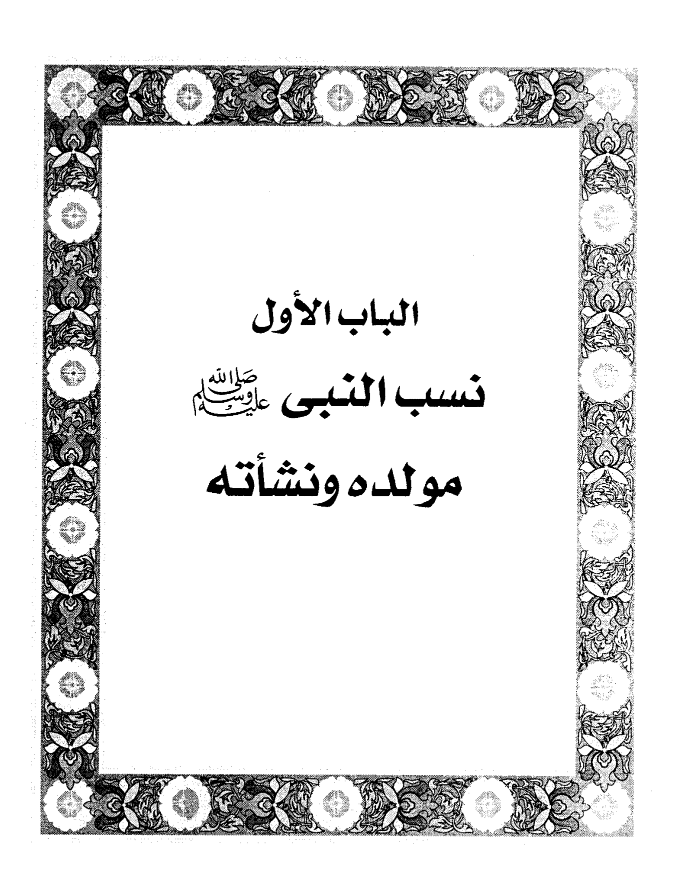
فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتنى النوادى مع محمود بك سالم القاضى بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علما بدينه تقف دونه فحول الرجال وتتأخر

عن مسابقته فيه الأبطال ، فقلما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها مفصحا عن الجواب عنها ، أما بسيرة الرسول الأكرم ﷺ فعنده منها الخبر اليقين. وكنت كثيرا ما أسمعه يتشوف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت : ياالله ! لقد وافق هذا السيد الكريم ما فى نفسى ، ولكنى كنت أرى فى عزيمتى قصورا عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته ، فإن المقام عظيم وصعوباته أعظم .

ولكن لم أر من الأمر بدأ تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة فإنهم أكثروا من الأمانى لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة . فقمت معتمدا على الله راجيا منه أن يوفقنى لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى ، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة وترجع إليه الخاصة .

وقد كان موردى فى تأليفه القرآن الشريف ، وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخارى ومسلم ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بد من تفهيم العبارات، فكان يساعدنى الشفاء للقاضى عياض، والسيرة الحلبية، والمواهب اللدنية للقسطلانى، وإحياء علوم الدين للغزالى .

(المؤلف)



الباب الأول

نسب النبى ﷺ

مولده ونشأته

الفصل الأول
مولده وطفولته ﷺ

النسب الشريف :

السيد الأكرم الذى شرف الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية [1] القرشية .

(ابن عبد المطلب) من زوجة فاطمة بنت عمرو المخزومية[2] القرشية .

وكان عبد المطلب شيخاً معظما فى قريش يصدرون عن رأيه فى مشكلاتهم ويقدمونه فى مهماتهم .

(ابن هاشم) من زوجة سلمى بنت عمرو النجارية [3] الخزرجية .

(ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية [4] .

(ابن قصى) من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية [5] .

وكان إلى قصى فى الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج وإطعامه المسمى بالرفادة والندرة وهى الشورى لا يتم أمر إلا فى بيته ، واللواء، لا تعقد رايه لحرب إلا بيده .

ولما أشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده عبد الدار .

لكن : بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لا يتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر ، وكاد يفضى الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء

---

(١) من بنى زهرة بن كلاب من قريش .

(٢) من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش .

(٣) من بنى النجار من الخزرج ، والخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الأوس والخزرج، وهما أخوان ، وسمى رسول الله ﷺ كلاً أنصاراً .

(٤) من بنى سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر .

(٥) من بنى خزاعة ابن عمر إحدى قبائل قمعة بن إلياس بن مضر ، وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش .

الفريقين فأعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده .

أما الحجابة فبقيت بيد بنى عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهى فيهم إلى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار .

وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام وجعله حقا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً وكذلك الندوة .

وقصى (بن كلاب) من زوجة فاطمه بنت سعد وهى يمانية من أزد شنوءة.

(ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بنـى فهر بن مالك .

(ابن كعب) من زوجه وحشيه بنت شيبان من بنى فهر أيضاً .

(ابن لؤى) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب مـن قضاعة .

(ابن غالب) من زوجـه أم لؤى سلمى بنت عمرو الخزاعى .

(ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل،وفهر هو قريش ـ فى قول الأكثرين .

وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصى ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة ابن مرة، وبنو تيم بن مرة ، وبنو عدى بن كعب ، وبنو سهل بن هصيص بن عمرو بن كعب، وبنو عامر بن لؤى ، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو محارب بن فهر.

والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح والذين بضواحيها قريش الظواهر.

(ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحارث من جرهم .

(ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عـدوان من قيس عيلان .

(ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر بن أد .

(ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان .

(ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة .

(ابن الياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة .

(ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد .

(ابن نزار) من زوجه سودة بنت عك .

(ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم .

(ابن عدنان) .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق ، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ﷺ ينتهى إلى إسماعيل بن ابراهيم أبى العرب المستعربة . نسب شريف كما ترى : آباء طاهرون وأمهات طاهرات ، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً ، فهو من صميم قريش التى لها القدم الأولى فى الشرف وعلو المكانة بين العرب ، ولا تجد فى سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة .

وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً.

ولا شك أن شرف النسب وطهاره المولد من شروط النبوة ، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية ولم ينل نسبه شىء من سفاح الجاهلية، بل طهره الله من ذلك ـ والحمد لله .

زواج عبد الله بآمنة وحملها :

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه فزوجه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثمانى عشرة سنة ، وهى يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، ولما دخل عليها حملت برسول الله ﷺ ولم يلبث أبوه أن توفى بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار: فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ، ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولده فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذى بث فى أرجائه

روح الآداب وتمم مكارم الاخلاق .

وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل [١] .

وكانت ولادته فى دار أبى طالب بشعب بنى هاشم وكانت قابلته [٢] الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف .

ولما أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمدا ، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله ، وأول من أرضعه ثويبة أمة عمه أبى لهب .

الرضاع الشريف :

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى ليكون أنجب للولد وكانوا يقولون: إن المربى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة ، فجاءت نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن أطفالا يرضعنهم ، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية واسم زوجها أبو كبشة ، وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء [٣] ! ودرت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم ، وكانت تربو عن أربع سنوات [٤] .

---

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة وقد ذكر القرآن هذه الحادثه في سورة الفيل وحاصلها أن ملكاً من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير أغار علي مكة وقصد هدم كعبتها وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله فإكراما للنبي المنتظر وغيرة علي بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وأراح قريشاً من عناء مقاومتهم .

(٢) أى التى استقبلته عند الولادة وهى (المولدة) .

(٣) ويقال إنه كان أحد أجداده لأمه ﷺ وقيل غير ذلك .

(٤) السيرة الحلبية .

حادثة شق الصدر :

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة : بينما هو وإخوته فى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه [1] فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدنا منتقعاً لونه[2] فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بنى؟ فقال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذه وطرحاه ولا أدرى ما هو [3] .

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبى طالب :

ثم إن أمه أخذته منها وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى ابن النجار ، وبينما هى عائدة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء [4] فحضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له فى ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنا عظيماً فى المستقبل ، وكان يكرمه غاية الإكرام ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمان سنوات من عمر الرسول ﷺ فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيوراً . وكان أبو طالب مقلا من المال فبارك الله فى قليله .

وكان الرسول ﷺ فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل بها الأطفال عادة كما روت أم أيمن حاضنته ، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون ، وهو قانع بما سييسره الله له .

---

(١) يحركانه بسوط .　　(٢) شبيهاً بالنفع وهو التراب .
(٣) وهذا هو خظ الشيطان منه فليس للشيطان بعد ذلك عليه سبيل .
(٤) قرية بين مكة والمدينة وهى أقرب إلى المدينة .

الفصل الثانى

نشأته ورحلاته

السفر إلى الشام :

ولما بلغت سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام ، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه ، فرق له وأخذه معه وهذه هى الرحلة الأولى ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً ، وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بصرى [1] بحيرا الراهب فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة من بعثة نبى من العرب فى هذا الزمن فقالوا إنه لم يظهر للآن ، وهـذه العبارة كثيرا ما كان يلهج بها أهـل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [2] .

حرب الفجار:

ولما بلغت سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس ، وسببها أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة [3] تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ [4] لتباع له وكان يرسلها فى أمان رجل ذى منعة وشرف فى قومه ليجيزها فجلس يوماً وعنده البراض ابن قيس الكنانى وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شره وعروة بن عتبة الرحال فقال : من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض: أنا أجيزها على بنى كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم؟ فقال عروة: أبيت اللعن[5] أكلب خليع يجيزها لك ؟! أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل

---

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب .   (٢) سورة البقرة آية ٨٩ .

(٣) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس فتحها خالد بن الوليد فى السنة الثانية عشر .

(٤) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر .

(٥) تحية عربية ومعناها بعدت عن كل ما يعرضك للذم .

نجد [١] وتهامة [٢] فقال البراض : أو تجيزها على أهل كنانة يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم . فأسرها فى نفسه وتربص له حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسلوا رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر ، ويحذرهم قيساً قوم عروة .

وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة [٣] فاقتتلوا ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله ﷺ ، ثم إن قيساً قالوا لخصومهم : إنا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً .

فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش وهم حلفاء قريش، وكان رئيس بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب، ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبى الكريم، وكان على بنى أمية: حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه فى قريش شرفاً وسناً، وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوماً من أشد أيام العرب هولاً، ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمى يوم الفجار. وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حرب بن أمية، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان.

وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيرا ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور،حتى ألف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هـذه الضلالات بانتشار نورالإسـلام بينهم.

حلف الفضول :

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول، فتم فى دار

---

(١) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها .

(٢) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقى منها يسمى البحرين ، والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز فى الغرب واليمامة فى الشرق .

(٣) موضع بين مكة والطائف .

عبد الله بن جدعان التيمي أحد حلفاء قريش ، وكان المتحالفون بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف وبنى أسد بن عبد العزى وبنى زهرة بن كلاب وبنى تميم بن مرة، تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته، وقد حضر هذا الحلف رسول الله عليه الصلاة والسلام مع أعمامه وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت» وذلك لأنه عليه السلام مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها، وقد أقر دين الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه السلام: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا .

رحلته إلى الشام المرة الثانية :

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة، سافر إلى الشام للمرة الثانية وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية [1] كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه فى غيره حتى سماه قومه الأمين ـ استأجرته ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للسيد الكريم فى هذه السفرة من البركات ما حببه فى قلب ميسرة غلام خديجة .

*****

(١) من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى .

الفصل الثالث

زواجه وحياته قبل البعثة

زواجه من خديجة:

ولما عاد بتجارة خديجة بنت خويلد إلى مكة ورأت ربحها العظيم سرت الأمين عليه السلام وأرسلت إليه تخطبه لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين وهى من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً ، فقام الأمين عليه السلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبى طالب فزوجها عمها.

وقد خطب أبو طالب فى هذا اليوم فقال: « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء[1] معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا)».

وعلى ذلك تم الأمر. وقد كانت متزوجة قبله بأبى هالة توفى عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام.

بناء البيت:

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فإنها كانت رضيمة [2] فوق القامة فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدامها لمكانها فى قلوبهم. فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون

---

(١) أصل.

(٢) بناء رضيم مبنى بالصخر ـ فعيل بمعنى مفعول.

بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال إن الله لا يهلك المصلحين، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل وهناك وجدوا صحافاً نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين.

ثم ابتدأوا فى البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغى [1] ولا بيع ربا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل، وكان الذى يلى البناء نجار رومى اسمه باقوم، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة .

ولما تم البناء ثمانى عشرة ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسع أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال، وكان أسن رجل فى قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومى عم خالد بن الوليد فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه فقالوا: نكل الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يدارى ولا يمارى .

فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه.

وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما يكون أمثالها سبباً فى انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن من الله عليهم بعاقل مثل أبى أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضى بينهم بما يرضى جميعهم .

---

(١) مهر البغى ما تأخذه المرأة من الرجل بعد أن يفجر بها .

ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون إليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم ، قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾[1] .

وكان يلى أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جرهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حيناً من الدهر ثم أخذته منهم قريش فى عهد قصى بن كلاب وبسببه أمنوا فى بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين وامتن الله عليهم بذلك فى تنزيله فقال فى سورة العنكبوت: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾[2].

معيشته عليه السلام قبل البعثة :

لم يرث عليه السلام من والده شيئاً بل ولد يتيماً عائلاً فاسترضع فى بنى سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى فى صحيحه. ووجود الأنبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بد منه لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية.

ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا وكذلك كان موسى وإبراهيم. وكانت حالتهم فى صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء، تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها وذلك سبب البلايا والمحن .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٩٦ / ٩٧ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٧ .

وكذلك رعاية الغنم ، فما من نبى إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق فى حديث للبخارى، وهذه أيضاً من بالغ الحكم فإن الإنسان إذا استرعى الغنم وهى أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى فيكون فى أعدل الأحوال .

ولما شب عليه السلام كان يتجر وكان شريكه السائب بن أبى السائب وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها إلى الشام على جُعل يأخذه .

ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله وحقق ﷺ ما امتن عليه به فى سورة الضحى بقوله جل ذكره: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾**[(١)] بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام ولم يكن يدرى ذلك قبل. قال تعالى فى سورة الشورى: **﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾**[(٢)].

سيرته فى قومه قبل البعثة .

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة وخيرهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثا، فسموه الأمين لما جمع ﷺ فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء، حتى شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث من بنى عبد الدار حيث يقول :

قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذ رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر !! لا والله ما هو بساحر .

---

(١) سورة الضحى الآيات ٦ ـ٧ ـ ٨ .
(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ .

قال ذلك فى معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. ورد ذلك فى أول صحيح البخارى.

وقد حفظه الله فى صغره من كل أعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها [1]، وبغضت إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيداً مما يقوم به عبادها، وقال عليه السلام: « **لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس، ولم أقض شيئا ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك** ».

وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب [2] وحرم الخمر على نفسه مع شيوعه فى قومه شيوعاً عظيماً وذلك كله من الصفات التى يحلى الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه فهم معصمون من الأدناس قبل النبوة وبعدها. أما قبل النبوة فيتأهلوا للأمر العظيم الذى سيسند إليهم وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

ما أكرمه الله به قبل النبوة:

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تئوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً. ويرحم الله البوصيرى حيث

---

(١) الشفاء للقاضى عياض.

(٢) هى حجارة تنصب للعباده وتنصب عليها دماء الذبائح.

يقول فى همزيته:

وإذا سخـــر الإلـه أناسا لسعيـــد فإنـــهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه، وليس هذا بالعجب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئا، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب. ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له فى سفره إلى الشام حتى كانت تظله فى اليوم الصائف لا يشترك معه أحد فى القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذى كان مشاركاً له فى سفره، وهذا ما حببه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها وتيقنت أن له فى المستقبل شأناً، ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الاخلاق وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى ببناء ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولاشجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً.

وقد حدث ذلك عن نفسه وليس فى ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله: فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتى عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط بنى إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم.



الباب الثانى

البعث والدعوة

الفصل الأول

الكتب السماوية تبشر بمقدمه

تبشير التوراة به ﷺ :

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ونوه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام[1].

(وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه، فأما النبى الذى يجتزى على بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره أو باسم آلهة أخرى فليقتل. وإذا أحببت أن تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك، إن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه).

ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح فإنهم[2] أرسلوا ليوحنا المعمدان(**يحيى**) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا ؟ فقال: لا فقالوا: أنت المسيح فقال: لا فقالوا : أنت النبى فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذا تعمد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبى؟ . . فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبى لم يأت حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول فى صفة النبى إنه مثل موسى، وقد نصت فى آخر سفر التثنية على أنه لم يقم فى بنى إسرائيل نبى مثل موسى وورد فى هذه البشارة أن النبى الذى يفترى على الله يقتل.

ويشبه ذلك فى القرآن قوله تعالى فى سورة الحاقة ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ**

(١) الإصحاح الثامن سفر التثنية .

(٢) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[١] ونبينا ﷺ مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله ومع ذلك عصمه ﷺ منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره فى سورة المائدة : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[٢] أكان يعجز الله وهو القادر على كل شىء أن يعاقب من ينسب إليه ـ ما لم يقله وهو الذى قال فى سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[٣].

وقد أخبرنا هذه البشارة عن العلامة التى نعرف بها صدق النبى من كذبه وهى الإخبار بما سيأتى.

وقد أخبر النبى عليه السلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم فالإخبار إذاً بأن الروم سيردون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر رضى الله عنه وقد حقق الله الخير فاستحق الصديق الرهن وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى[٤].

وروى القاضى عياض فى الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو ابن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام فقال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[٥]. وحرزاً للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب[٦] فى الأسواق. ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن

---

(١) سورة الحاقة الآيات (٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦) والوتين عرق فى القلب إذا انقطع مات .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧ . (٣) سورة الشورى الآية ٢٤ .

(٤) ﴿ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون بضع سنين .. ﴾ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٥ .

(٦) الصخاب : شديد الصوت .

يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولو لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً.

وروى مثله عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه وهو الذى كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار.

وفى بعض طرق الحديث: ولا صخاب فى الأسواق ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره، والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمى به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

وقد أخبر عليه السلام عن صفته فى التوراة فقال وهو الصادق الأمين : عبدى أحمد المختار، مولده مكة ومهاجره بالمدينة أو قال طيبة وأمته الحمادون الله على كل حال.

تبشير الإنجيل :

بشر عيسى عليه السلام قومه فى الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقه فى القرآن قوله الله تعالى فى سورة الصف: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾[1].

وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال : إنه يوبخ العالم على خطيئته وإنه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[2].

(١) سورة الصف الآية ٦ .   (٢) سورة النجم الآيتان ٣ ، ٤ .

وقد ورد فى إنجيل برنابا الذى ظهر منذ قريب وأخفته حجب الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة[1].

حركة الأفكار قبل البعثة :

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة.

فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر، فقد حدث عاصم ابن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنما دعانا للإسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من أحبار يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا. وإنما قال لهم اليهود : نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه السلام فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغى سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة.

وكان أمية بن أبى الصلت المنتصر العربى كثيراً ما يقول : إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا.

وحدث سلمان الفارسى رضى الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له : يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان[2].

ولما راسل عليه السلام ملوك الأرض لم يهن كتابه إلا كسرى الذى ليس عنده علم من الكتاب، أما جميع ملوك النصارى كالنجاشى ملك الحبشة والمقوقس

(١) طبع الآن فى مصر .

(٢) إذ بعث له بصدقة فأعطاها لأصحابه ولما أرسل له بهدية أكل منها وأطعم أصحابه .

ملك مصر، وقيصر ملك الروم فأكرموا وفادة رسله، ومنهم من آمن كالنجاشى، ومنهم من رد رداً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس.

ولم يكن عليه السلام فى قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتى من بعده ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتى هى أحسن.

أما ما سمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر ومع ذلك كله فالأعمال التى جاد الله بها على يديه والأقوال التى أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته.

وسيأتى عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد هداك الله إلى الصراط السوى.

الفصل الثانى

بعثة الرسول ﷺ

بدء الوحى:

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهى أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى، تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان فى ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة ٦١٠.

وأول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وذلك لما جرت به عادة الله فى خلقه من التدريج فى الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جداً على البشر تلقى الوحى من الملك لأول مرة.

ثم حبب إليه السلام الخلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله، فإن فى العزلة صفاء السريرة، وكان يخلو بغار[1] حراء فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد فتارة عشرا وتارة أكثر إلى شهر، وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء.

فبينما هو قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ثم قال له اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فإنه عليه السلام أمى لم يتعلم القراءة قبلاً، فأخذه فغطه بالنمط[2] الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء. فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)

---

(١) جبل على مقربة من مكة.

(٢) النمط: ظهارة الفراش وضرب من البسط وثوب من صوف ملون له خمل رقيق يطرح على الهودج.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] فرجع بها عليه السلام يرجف فؤاده مما ألم به من الروع الذى استلزمته مقابلة الملك لأول مرة فدخل على خديجة زوجه، فقال: زملونى زملونى[2] لتزول عنه هذه القشعريرة فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى، لأن الملك غطه حتى كاد يموت ولم يكن له عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله، فقالت: كلا والله ما يخزيك ﷺ أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم[3]وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك.

ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان امرءا قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى.

فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فقال: يا بن أخى ماذا ترى؟ فأخبره عليه السلام خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل ثم قال: يا ليتنى فيها جذعاً (شاباً جلداً) إذ يخرجك قومك من بلادك التى نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك، حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم، فاستغرب عليه السلام ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لا تصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سموه الأمين وقال : أو مخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى. وقد نطق بذلك القرآن الكريم قال تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[4].

ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه السلام قال: وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معضداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفى.

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥ .
(٢) لفونى فى ثوبى .
(٣) أى تكسبه ما ليس عنده .
(٤) سورة إبراهيم الآية ١٣ .

فترة الوحى

وفترة الوحى مدة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً ليشتد شوق الرسول للوحى. وقد كان فإن الحال اشتد به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى وهى اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدى له الملك قائلاً: أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحى.

عود الوحى:

فبينما هو يمشى إذ سمع صوتاً من السماء فرفع إليه بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض فرعب منه لتذكر ما فعله فى المرة الأولى فرجع وقال: دثرونى دثرونى. فأنزل الله تعالى عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أى حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ بالتعظيم ولا تشرك معه فى ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾... لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أى اهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ولاتهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تسعيض من الموهوب أكثر مما وهبت فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾[1] على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله.

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١ ـ ٦ .

الفصل الثالث

الدعوة إلى الهدى

الدعوة سرا وأول الناس إسلاما :

قام عليه السلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة وهو الذى كثيراً ما كان سبباً فى الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه، فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته.

وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجه.

وعلى بن أبى طالب ابن عمه وكان مقيماً عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة وكان أبو طالب مقلا كثير الأولاد فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب : إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً فانطلقا وعرضا عليه الأمر فأخذ العباس جعفر بن أبى طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان فى كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة، وقد ناهز الاحتلام فكان تابعا للنبى فى كل أعماله، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى.

وأجاب أيضاً زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى مولاه عليه السلام وكان يقال له: زيد بن محمد لأنه لما اشتراه أعتقه وتبناه، وكان المتبنى كابن حقيقى يرث ويورث، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التى زوجها لمولاه زيد.

وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبى قحافة بن عامر بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى كان صديقاً لرسول الله. قبل النبوة يعلم

ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال : بأبى أنت وأمى أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

كان رضى الله عنه صدراً معظماً فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعف الناس سخياً يبذل المال محبباً فى قومه حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله. بمنزلة الوزير فكان يستشيرة فى أموره كلها وقال فى حقه: (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر).

وكانت الدعوة إلى الاسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان عليه السلام لا يدعوا إلا من يثق به.

ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع منهم عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى، ولما علم عمه الحكم بإسلامه أوثقه كتافاً وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث !!! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أفارقه.

فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه وكان كهلاً ينهاهز الثمانين من عمره.

(ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى وأمه صفية بنت عبد المطلب، وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه فقواه الله بالثياب وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام.

(ومنهم) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو فسماه عليه السلام عبد الرحمن.

(ومنهم) سعد بن أبى وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى. ولما علمت أمة؟منة بنت أبى سفيان بن أمية بإسلامه قالت

له: يا سعد: بلغنى أنك قد صبأت [1] ! فوالله لا يظلنى سقف من الحر والبرد وأن الطعام والشراب على؟رام؟تى تكفر بمحمد. وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله. وشكا إليه أمر أمه فنزل فى ذلك تعليماً قول الله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [2].

وصاه جل ذكره بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين، أما إذا دعواه للإشراك فالمعصية متحتمة لأن كل؟ق وإن عظيم ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ثم قال إلى مرجعكم من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم؟ق جزائكم.

وفى ختام هذه الآية فائدتان التنبيه على أن الجزاء إلى الله فلا تحدث نفسك بجفوتهما لإشراكهما، والحض على الثبات فى الدين لئلا ينال شر جزاء فى الأخرى.

(ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة التيمى القرشى وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله به ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب بادر إلى الإسلام.

(وممن) سبقوا الإسلام صهيب الرومى وكان من الموالى وعمار بن ياسر العنسى، وقد قال رضى الله عنه: رأيت رسول الله. وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية.

(ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود، كان يرعى الغنم لبعض مشركى قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه عليه السلام من مكارم الأخلاق ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله. وكان رضى الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشى أمامه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا

(١) أى خرجت من دينك إلى دين آخر وهو الإسلام والصابئون لفظ يطلق أيضاً على قوم كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملة نوح عليه السلام .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٨ .

قام، فإذا جلس أدخلهما فى ذراعيه.

ومن السابقين الأولين: أبو ذر الغفارى، وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى.

فانطلق الأخ?تى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم رجع إلى أبى ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال ما شفيتنى مما أردت. فتزود وحمل قربة له فيها ماء?تى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبى ﷺ ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله?تى إذا أدركه الليل رآه على فعرف أنه غريب فأضافه عنده ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شىء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث).

فلما أصبح احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول?تى أمسى فعاد إلى مضجعه فمر به على فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذى أضيف به بالأمس، فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء، ?تى إذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك.

ثم قال له على: ألا تحدثنى ما الذى أقدمك؟ قال: إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت، ففعل فأخبره قال: فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتبعنى فإنى إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنى أريق الماء فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى ففعل فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبى ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبى: ارجع إلى قومك فأخبرهم?تى يأتيك أمرى، قال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه?تى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم، أولستم تعلمون أنه من غفار؟ وإن طريق تجارتكم إلى الشام عليه!

فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكب العباس عليه (رواه البخارى).

كان رضى الله عنه من أصدق الناس قولاً وأزهدهم فى الدنيا.

ومن السابقين: سعد بن زيد العدوى القرشى وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأم الفضل، لبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومى القرشى، ابن عمة رسول الله ﷺ، وزوجه أم سلمة، وعثمان بن مظعون الجمحى القرشى وأخواه قدامة وعبد الله والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى القرشى.

ومن السابقين الأولين: خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ـ القرشى: كان أبوه سيد قريش إذا اعتم لم يعتم قرشى إجلالاً له، وكان خالد بن سعيد قد رأى فى منامه أنه سيقع فى هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء إليه وقال إلام تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة؟جر لا يسمع ولا يبصر ولايضر ولا ينفع، والإحسان إلى والديك وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك، وأن توفى لمن عاهدت، فأسلم رضى الله عنه.

وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه من القوت فانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى ضواحى مكة وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى دين الإسلام ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من

فضل ما له بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه السلام كأبى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالاً وأنعم عيشة، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى.

الجهر بالتبليغ:

مضت كل هذه المدة والنبى عليه السلام لا يظهر الدعوة فى مجامع قريش العمومية ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلى مستخفياً، ولما دخل فى الدين ما يربو على الثلاثين وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم اختار لذلك دار الأرتق بن أبى الأرقم ـ وهو ممن ذكرنا إسلامهم ـ.

ومكث عليه السلام يدعوا سراً حتى نزل عليه قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [1] فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ممتثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره فصعد على الصفا فجعل ينادى: يا بنى فهر يا بنى عدى... لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريشاً فقال عليه السلام: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فى شأنه: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[2].

والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب فى نوادى النساء.

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٢) سورة المسد كلها .

ثم نزل عليه سورة الشعراء ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [1] وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ [2] أى العشيرة والأقربون ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [3] فجمعهم عليه السلام وقال لهم: إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن كما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً. فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبى لهب الذى كان خصماً لدوداً فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فإن سلمتوه إذًا ذللتم وإن منعتوه قتلتم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا، ثم انصرف الجمع.

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزأوا به فى مجالسهم فكان إذا مر عليهم يقولون: هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ! وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ! لا يزيدون على ذلك.

فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم: والله ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت فى رءوسهم؟مية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم فذهبوا إلى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه؟مايته من أيدى أعدائه، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول، فردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده لا يصده عن مراده شىء فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ وحث بعضهم بعضا على ذلك.

ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وقالوا له: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منا وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٦ .

شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا.

فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (١) وقال فى سورة المائدة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) وقال فى سورة لقمان: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) وقال فى سورة الزخرف فى بيان؟جتهم الداحضة ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٥).

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لأبى طالب إما أن تكفه أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا فعظم على أبى طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له يا بن أخى إن القوم جاءونى فقالوا لى كذا فأبق على نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق.

فظن الرسول أن عمه خاذله فقال: والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت؟تى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم بكى وولى. فقال أبو طالب: أقبل يا بن أخى. فأقبل عليه فقال: اذهب فقل ما أحببت، والله لا أسلمك.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٤ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢١ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٢٤ وهى على قراءة من قرأ على صيغة الأمر مثل الإمام نافع .

الإيذاء:

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين [1].

فأولهم وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى قال يوماً: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم. إنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر لا أطيق؟مله فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال: ذاك جبريل ولو دنا لأخذه.

وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلى: ألم أنهك عن هذا فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال: أتهددنى وأنا أكثر الوادى نادياً فأنزل الله تهديداً له فى آخر سورة اقرأ ﴿ **كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [1].

ومن أذيته للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث

---

(١) وقد انتقم الله منهم واحدا واحدا وهم الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾.

جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى ﷺ وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القذر ورمته. فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال: اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواماً، قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر.

ومما حصل لرسول الله مع أبى جهل أن هذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له الأراشى فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من أبى جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقى بالرسول فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال محمد فخرج منتقعاً لونه فقال له الرسول: أعط هذا حقه، فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت! قال: ويلكم ما هو إلا أن ضرب على بابى حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وإن فوق رأسى فحلاً من الإبل ما رأيت مثله [٢].

ومن جماعة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباعد فكان يرمى القذر على بابه لأنه كان جاراً له فكان الرسول يطرحه ويقول: يا بنى عبد مناف أى جوار هذا؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة المسد.

ومن المستهزئين عقبة بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله، وكان يعمل معه كأبى لهب، صنع مرة وليمة ودعا كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه السلام والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أبى ابن خلف -

---

(١) سورة العلق الآيات من ١٥ إلى آخر السورة.

(٢) وقد أرسلت قريش رجلا ليحضر الحادثة فجاء فأخبرهم بما وقع قبل أن يأتى أبو جهل ليخبرهم بما حدث.

الحمجى القرشى وكان صديقاً له فقال: ما شىء بلغنى عنك قال: لا شىء دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له.

قال أُبى: وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل فيه فى سورة الفرقان: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (١).

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه قال: بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق الرسول فخنقه خنقاً شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (٢).

ومن جماعة المستهزئين العاصى بن وائل السهمى القرشى والد عمرو بن العاص كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول غر محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله رداً عليه فى دعواه فى سورة الجاثية: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (٣).

وكان عليه دين لخباب بن الأرت أحد رجال المسلمين فتقاضاه إياه فقال العاصى: أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما يبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خباب: بلى، قال: فأنظرنى إلى هذا اليوم فسأوتى مالاً وولداً وأقضيك دينك، فأنزل الله فيه فى سورة مريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧ ـ ٢٩ .

(٢) سورة غافر الآية ٢٨ .

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[1].

ومن جماعة المستهزئين الأسود بن عبد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهرة أخوال رسول الله كان إذا رأى أصحاب النبى مقبلين ثيابهم رثة وعيشهم خشن وكان يقول لرسول الله سخرية: أما كلمت اليوم من السماء.

ومنهم الأسود بن عبد المطلب الأسدى ابن عم خديجة كان هو وشيعته إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل فى سورة التطفيف[2]﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴾.

ومنهم الوليد بن المغيرة عم أبى جهل، كان من عظماء قريش وفى سعة من العيش سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ فقال لقومه بنى مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى، فقالت قريش: صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه فتوجه وقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ! وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا فى كل ذلك اللهم لا.

ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فارتج النادى فرحاً فأنزل الله فى شأن الوليد فى سورة المدثر مخاطباً لرسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ

---

(١) سورة مريم الآيات ٧٧ إلى ٨٠ .

(٢) يقصد سورة المطففين واقرأ الآيات من ٢٩ - ٣٢ .

(٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [١].

وأنزل فيه أيضاً فى سورة القلم﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف وكفى بهذا زجراً لمن اعتاد الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾؟ قير، وأراد بـه الكذاب لأنه حـقير فـى نفسه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب طعان ﴿ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ينقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [٢] كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه ولذلك اشتقوا منه ما يدل على العظمة كالأنفة وهى الحمية فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

ومن المستهزئين النضر بن الحارث العبدرى من بنى عبد الدار بن قصى كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر: هلموا يا معشر قريش فإنى أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس، وكان يعلم أحاديثهم ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأولين، وفيه نزل فى سورة لقمان ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣].

وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى فى التنزيل فى سورة الحجر ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] وقد وضع الله جل ذكره الوعد فى صورة الماضى للتحقق من وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة فمنهم من قتل كأبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة.

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١١ ـ ٢٦ .
(٢) سورة القلم الآيات ١٠ ـ ١٦ .
(٣) سورة لقمان الآيتان ٦ ـ ٧ .
(٤) سورة الحجر الآيتان ٩٥ ـ ٩٦ .

إسلام حمزة:

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب فقد أدركته الحمية عندما عيرته بعض الجوارى بإيذاء أبى جهل لابن أخيه فتوجه إلى ذلك الشقى وغاضبه وسبه وقال: كيف تسب محمداً وأنا على دينه، ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً وأشدهم غيرة على المسلمين وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمى أسد الله.

وكما أوذى الرسول عليه الصلاة والسلام أوذى أصحابه لاتباعهم له خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً فى أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال جل ذكره فى سورة القصص ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (1) وقد؟قق ما أراد.

ومن الذين أوذوا فى الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجحمى القرشى فكان يجعل فى عنقه؟بلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول: أحد أحد.، لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمضاء وهى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره. ثم يقول له: لا تزال هكذا؟تى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول: أحد أحد.

مر به أبو بكر يوماً فقال: يا أمية أما تتقى الله فى هذا المسكين؟تى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفى أمية فى سورة الليل ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ (14) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ أمية ابن خلف ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ الصديق ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (18) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (19) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (2) بما

---

(1) سورة القصص: آية5 .

(2) سورة الليل الآيات 14 ـ 21 .

يعطيه الله فى الأخره جزاء أعماله.

وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله فى شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضى الله عنه وأرضاه.

وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليهم (ومنهم) حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف.

ومنهم امرأة تسمى زنيرة عذبت فى الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيمانا وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه أفتسبقنا زنيرة إلى رشد فأنزل الله فى سورة الأحقاف ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1].

وممن أعتق أبو بكر بعد شرائه أم عنيس، كانت أمة لبنى زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث.

وممن عُذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت.

أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه إياها فقال المسلمون: كفر عمار، فقال عليه السلام: عمار ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد فقال جل ذكره فى سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2].

(١) سورة الاحقاف الآية ١١ .

(٢) سورة النحل الآية ١٠٦ .

وممن أوذى فى الله خباب بن الأرث سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار وكان حداداً وكان النبى يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً.

وجاء خباب مرة الى رسول الله وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه السلام محمراً وجهه فقال: أنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه، من لحم وعصب ويوضع الميشار على فوق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت[1] لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، قال ذلك عليه السلام وهو على هذه الحال الشديدة التى لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه. ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت **﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** [2].

وممن أوذى فى الله أبو بكر الصديق ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد فلقيه ابن الدغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى. فقال ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه وطاف فى أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لا يخرج مثله. أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على النوائب الحق! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه فى

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر .
(٢) سورة العنكبوت الآيات ١ ـ ٣ .

داره فليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره.

ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه النساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان.

فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذى عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخارى) وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبى بكر رضى الله عنه.

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذية لحقته ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم فانهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون؟صوله فيسهل إرجاعهم ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شىء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم اجتمعوا للشورى فيما بينهم فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعاً فى قومه: يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا، فقالوا يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه.

فذهب إلى رسول الله وهو يصلى فى المسجد، وقال: يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: قل يا أبا الوليد أسمع.

فقال: يا بن أخى، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً أمرناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى.

فقال عليه الصلاة والسلام: قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ

مَلائكَةً فإنَّا بمَا أُرْسلْتُم به كَافرُونَ﴾ [1].

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا: لقد سحرك محمد فقال: هذا رأيى.

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه فى عبادته فأنزل الله فى ذلك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [2] فلا تتواهموا أنى أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتى بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جواباً لهم فى سورة يونس [3] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضىء به وهو أنه بينما الرسول عليه السلام مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى وهو ممن أسلموا قديماً والنبى مشتغل بالقوم وقد لقى منهم مؤانسة حتى طمع فى إسلامهم فقال له عبد الله: يا رسول الله علمنى مما علمك الله، وأكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه وخاف عليه السلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله فى أول سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ

---

(١) سورة فصلت من أولها إلى الآية ١٤.

(٢) سورة الكافرون كلها.

(٣) سورة يونس الآية ١٥.

﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ فما عبس رسول الله ﷺ بعدها فى وجه فقير، وكان إذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له: مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى.

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا فى باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهى أن تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله اشهدوا.

وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبد الله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر.

وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى أول سورة القمر ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبى كبشة فأنزل الله فيهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾(٢).

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد فمنها أن قالوا كما فى سورة الإسراء ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ ولم يجبهم الله إلا بقوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (٣) لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره فى سورة الأنعام ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) وكيف يرجى

---

(١) سورة القمر الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) سورة القمر الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) سورة الإسراء الآيات من ٩٠ إلى ٩٣ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٩ .

الخير ممن قالوا كما فى سورة الأنفال ﴿ اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وإنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو المراد من قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ (٢).

ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحولوا إلى سياسة القوة التى اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ (٣) كما فى سورة الأنبياء أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً إلا ولجوه فقال عليه السلام لأصحابه: تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم، فسألوه عن الوجه فأشار إلى الحبشة.

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٥٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٦٨ .

الفصل الرابع

الهجـــــرات

هجرة الحبشة الأولى:

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه السلام وهذه هى أول هجرة من مكة وعدد أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة، وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لأمه أبو سبرة أبى رهم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهله بنت سهيل، وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهل بن البيضاء، والزبير بن العوام وجلهم[1] من قريش، وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون.

فساروا على بركة الله ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع النبى عليه السلام إلا القليل.

إسلام عمر:

وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام: عمر بن الخطاب العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم.

قالت ليلى إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى إسلامنا فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به فقال لى: إلى أين يا أم عبد الله ؟ فقلت: قد آذيتمونا فى ديننا، نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى، فقال: صحبكم الله فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال: ترجين أن يسلم والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين.

---

(١) أى أكثرهم .

ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ فإنه قال قبيل إسلامه: اللهم أعز، الإسلام بعمر وكان إسلامه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها، وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه السلام فقد قال عبد الله ابن مسعود من رواية البخارى: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) فإنه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته فى المسجد ففعل.

وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمى وهو من بنى سهم حلفاء بنى عدى قوم عمر وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال: لعمر ما بالك فقال: زعم قومك أنهم سيقتلوننى أن أسلمت قال: لا سبيل إليك فأنا لك جار، فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادى فقال: أين تريدون ؟ قالوا: هذا بن الخطاب الذى صبأ قال لا سبيل إليه، فرجع الناس من حيث أتوا.

رجوع مهاجرى الحبشة:

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجرى الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد وفى الكثرة بعض الأنس، وأضف إلى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لا يطيب لهم العيش فى دار غربة بهذه الحالة.

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً فى رجوع مهاجرى الحبشة وهى أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [1] تلك الغرانيق (جمع غرنوق وهى الطيور ويراد بها الملائكة) العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً، وهذا مما لا تجوز روايته إلا على قليلى الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته.

---

(١) سورة النجم الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر.

أما الحديث فسنده ومتنه قلقان فالسند قال فيه القاضى عياض فى الشفاء: لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الأصنام قال ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (1) فالكلام غير منتظم.

ولو كان قد حصل لأتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة وهذا قالوا فيه حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم فى سورة البقرة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾(2).

ولكن لم يسمع عن أى أحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم أن قال: ما لك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال. على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجرى الحبشة يقولون أثناء كلامهم إن الهجرة كانت فى رجب والرجوع كان فى شوال ونزول سورة النجم كان فى رمضان فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفى فى ذاك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإياب منها لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير فى البحر ولا تلغراف يوصلَ خبر إسلام قريش لمن بالحبشة.

فلا غرابة بعد ذلك أن قلنا أن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ولكن الحمدلله فقد من علينا بحفظ كتابنا المجيد الذى يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففى السورة نفسها﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾(3) والذى يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى فكيف يقوله عليه السلام أو يجرى على لسانه مما يثبت الشكوى فى الوحى؟ الأمر الذى يريده السفهاء رد الله كيدهم فى نحرهم.

---

(1) سورة النجم الآية ٢٣ .

(2) سورة البقرة الآية ١٤٢ .

(3) سورة النجم الآية ٣ .

والذى ورد فى الصحيح فى موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبى عليه السلام قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته وقال يكفينى هذا، فرأيته قتل بعد كافراً، وليس فى هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذى يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافراً أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتد وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا منهم: على بن أمية بن خلف.

ولما رجع مهاجروا الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له مجيراً فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب، ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم ير أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون.

كتابة الصحيفة:

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك.

ثم عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيداً من شبابهم يتبناه ويسلم إليهم ابن أخيه فقال: عجباً لكم تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟.

فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك فى شعب أبى طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابنى عبد مناف فجهد القوم، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفى مقدمة المانعين أبو لهب.

هجرة الحبشة الثانية:

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة

حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبد الله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون: أبو موسى وبنو عمه.

ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشى ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشى إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته فى قوم لاذوا به.

أما بنو هاشم فمكثوا فى الشعب قريباً من ثلاث سنوات فى شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية.

نقض الصحيفة:

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم: هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وهو أعظمهم فى ذلك بلاء، وزهير ابن أبى أمية المخزومى ابن عمة الرسول عاتكة، والمطعم بن عدى النوفلى وأبو البخترى بن هشام الأسدى وزمعة بن الأسود الأسدى واتفقوا على ذلك ليلاً فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يتباعون ! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة.

فقال أبو جهل: كذبت، فقال زمعة لأبى جهل: أنت والله أكذب ! ما رضينا كتابتها حين كتبت، فقال أبو البخترى: صدق زمعة، وقال المطعم ابن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وصدق على ما قيل هشام بن عمرو: فقام إليها المطعم بن عدى فشقها وكانت الأرضية قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله وقد أخبر النبى عليه السلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة.

وفود نجران:

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعو بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ! فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله فى ذلك سورة القصص: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ** (٥٢) **وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** (٥٣) **أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٥٤) **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴾[١] وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لا يستحى لمزيد عناده أن يقول: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [٢].

وفاة خديجة رضى الله عنها

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضى الله عنها:

كان عليه السلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها، ولا غرابة فهى أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم، فمنها زينب وهى أكبر بناته تزوجها فى الجاهلية أبو العاص ابن الربيع وأعقب منها أمامة التى تزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى الحبشة والثانية

(١) سورة القصص الآيات من ٥٢ إلى ٥٥ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

بالمدينة بعد أن ماتت أختها ومنها فاطمة وهى أصغر بناته تزوجها على بن أبى طالب وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً.

ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى أسد ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ وعبد الله الملقب بالطيب والظاهر.

زواج سودة:

وعقد عليه السلام فى الشهر الذى ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبنى عمها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فى المرة الثانية خوف الفتنة وعقب رجوعه من هجرته توفى عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها وكرم نسبها فى قومها يمنعها من التزويج برجل أقل منها نسباً وشرفاً.

زواج عائشة رضى الله عنها:

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبى بكر وهى لا تتجاوز السابعة من عمرها، ولم يتزوج عليه السلام بكراً غيرها، ودخل بها بالمدينة، أما سودة فدخل بها بمكة.

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفى عمه أبو طالب الذى كان يمنعه من أذى أعدائه ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظه من حياته، وفيه نزل فى سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١).

ولكن لأعماله العظيمة التى عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه (٢).

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٢) يقول ﷺ عن أبى طالب : يقف فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منها يافوخه وذلك لأنه ثبت على دين قومه .

وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى فإنهم لو بادروا باتباعه لقيل قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسألهم فجاءوا بهذا الأمر المفترى.

ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها أحياناً كعثمان بن عفان من بنى أمية لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التى كانوا يتمسكون بها تصدعهم الحجة من قولهم ساحر يفرق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب.

وقد سمى رسول الله هذا العام الذى فقد زوجه وعمه عام الحزن.

ولما مات أبو طالب واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر، ويضعون أوساخ الشاة عليه فى صلاته، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذى تريد أن تجعل الآلهية إلهاً، فما يخلصه تقدم أحد من المسلمين حتى واحداً منهم لما هو عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدم وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟!.

هجرة الطائف:

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف[٢] يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى منصور وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد ابن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو ابن عمير الثقفى فعرض عليهم نصرته حتى يؤدى دعوته فردوا عليه رداً قبيحاً ولم ير منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم أن لا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه السلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه.

وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم [٢] واستظل

(١) بلد مرتفعة فى الجنوب الشرقى من مكة .

(١) وهى الحبلة أو شجرة العنب .

بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما من أعدائه وكانا فى البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلاً (**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت ربى إلى من تكلنى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى**). فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا إليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عداس فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال (**بسم الله الرحمن الرحيم**) فقال عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له عليه السلام: من أى البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصرانى من نينوى [1] فقال له عليه السلام: من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى قال: وما علمك بيونس فقرأ له القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عداس أسلم.

وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال: إن الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك فقال عليه السلام (**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**) فقال: جبريل صدق من سماك الرءوف الرحيم. ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون إلى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوا أنصتوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل فى سورة الأحقاف ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [2].

وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم أولها ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾ [3].

---

(١) بلد على شاطىء دجلة وهى آخر ما ينتهى إليه العراق وتواجه مدينة الموصل العراقية .

(٢) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ الى ٣٢ .

(٣) سورة الجن الآيتان ١ ، ٢ أما ما استمعوه من رسول الله ﷺ فهو سورة الرحمن .

الاحتماء بالمطعم بن عدى:

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم فأرسل عليه السلام إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة فى جواره فأجاب إلى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف (١) فقال له بعض المشركين: أمجير أم تابع ؟ فقال: بل مجير، قالوا: إذا لا تخفر ذمتك (٢).

وفد دوس

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسى من قبيلة دوسى عشيرة أبى هريرة الصحابى الشهير وكان الطفيل شريفاً فى قومه شاعراً نبيلاً فلما قرأ عليه القرآن أسلم فقال له رسول الله: اذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام ودعا لهم رسول الله فقال: اللهم اهد دوساً، فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم. وستأتى وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه فى المدينة.

الإسراء والمعراج:

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوى وقد قال جمهور أهل السنة إن ذلك كان بجسمه الشريف، وكانت عائشة رضى الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول: من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله (٣).

والإسراء مذكور فى القرآن الكريم، قال تعالى فى أول سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٤).

---

(١) اسم مكان من طاف وهو المكان حول الكعبة محل طواف الطائفين.

(٢) أى لا تنقد عهدك.

(٣) أما من قال إن الإسراء كان بجسمه الشريف فكثير من الصحابة منهم ابن عباس رضى الله عنهم.

(٤) سورة الاسراء الآية ١.

وأما المعراج فقد ورد فى صحيح السنة وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضى عياض فى شفائه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة [1].

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا وإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن [2] فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير وقال تعالى فى سورة مريم ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[3].

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فذكر مثله فإذا أنا موسى فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى ففرض على وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم ليلة،

---

(١) وفى حديث آخر أنه عرض عليه آنية ثلاثة : واحد من ماء والثانى من الخمر والثالث من اللبن فقيل له لو اخترت الماء لغرقت أمتك ولو اخترت الخمر لغوت أمتك ولكنه هدى إلى الفطرة باختياره اللبن .

(٢) أما من أعطى الحسن كله فهو آدم عليه السلام .

(٣) سورة مريم الآية ٥٧ .

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني اسرائيل قبلك وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي وقلت له: يا ربي خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فسله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعلمها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه.

ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فجاء إليه أبو جهل بن هشام فحدثه رسول الله ﷺ بما جرى له فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي هلموا فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب.

وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي من ذلك اليوم صديقاً، ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم بابا باباً وموضعاً.

فقالوا: أما النعت فقد أصاب فأخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عير قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق [1] فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، حتى قالوا هذا سحر مبين.

(١) الأورق من كل شيء ما كان لونه لون الرماد ومن الإبل ما في لونه بياض إلى سواد.

وفى صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها فيصلى ركعتين إذا ظهر الفجر وأربع ركعات إذا زالت الشمس ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء وثلاثاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثلهما مساء كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام.

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم، أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدى غيرهم من العرب فكان عليه السلام يخرج فى المواسم العربية (وهى أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسالة ربه فكان بعضهم يرد رداً جميلاً وآخرون رداً قبيحاً.

وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب، وطلب منه بنو عامر إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فقال لهم الأمر لله يضعه حيث يشاء.

وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهى مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان إحداهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان، فكانوا دائماً فى شقاق ونزاع، وكان يجاورهم فى المدينة أقوام اليهود وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، وكان لهم الغلبة على يثرب أولا فحاربهم العرب حتى صاروا ذوى النفوذ فيها والقوة، وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبى يبعث قد قرب زمانه.

ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفسهم فحالف الأوس بنى قريظة وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع، وآخر الأيام بينهم يوم بعاث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أُبى ابن سلول من الخزرج وأبو عامر الرهب من الأوس ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ.

وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج فأرسلوا إياس

بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف فى قريش فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله ﷺ وقال هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً وقد أرسلنى الله إلى الناس كافة ثم تلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت.

بدء إسلام الأنصار:

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بنى النجار ورافع بن مالك من بنى زريق وقطبة بن عامر من بنى سلمة وعقبة بن عامر من بنى حرام وجابر بن عبد الله من بنى عبيد بن عدى، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض: إنه للنبى الذى كانت تعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه، فآمنوا به وصدقوه وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب.



الباب الثالث

بدء الانتصار

الفصل الأول

الهجرة إلى المدينة

العقبة الأولى:

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع بن مالك، وذكوان ابن قيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه فى معروف فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب، وهذه هى العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدرى [1] وعبد الله بن أم مكتوم وهو ابن خديجة يقرئانهم القرآن ويفقهانهم فى الدين، ونزل مصعب على أحد المبايعين أبى أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام.

وبينما هو فى بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لأسيد بن حضير ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما ؟ فقام لهما أسيد بحربته فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه. فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا، إن كان لكما بأنفسكما حاجة.

فقال مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره فقرأ عليه مصعب القرآن استحسن دين الإسلام وهداه الله له فتشهد ورجع إلى سعد فسأله عما فعل فقال: والله ما رأيت بالرجلين بأسا فغضب سعد

---

(١) العبدرى : نسبة إلى عبد الدار .

وقام لهما متغيظاً ففعل معه مصعب كسابقة فهداه الله للإسلام ورجع لرجال بنى عبد الأشهل وهم بطن من الأوس فقال لهم: ما تعدوننى فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا قال: كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بنى الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

العقبة الثانية:

ولما كان وقت الحج فى العام الذى يلى البيعة الأولى قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم، ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة فأمرهم أن لا ينبهوا فى ذلك الوقت نائماً ولا ينتظرون غائباً لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا فى نقض ما أبرم شأنهم مع رسول الله فى أول أمره.

ولما فرغ الأنصار من حجتهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مضى ثلث الليل الأول فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثاً وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب من بنى النجار، وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة، ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه عباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون موثوقاً له.

فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل فى منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه وما تحملتم من ذلك وإلا فدعوه بين عشيرته فإنهم لبمكان عظيم.

فقال كبيرهم المتكلم عنهم: البراء بن معرور: والله لو كان لنا فى أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله، وعند ذلك قالوا لرسول الله ﷺ: خذ لنفسك ولربك ما أحببت. فقال: تمنعوننى مما

تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم.

فقال له الهيثم بن التيهان: يا رسول الله ﷺ إن بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم عليه السلام، وقال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أى إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته.

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهى العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب وأول من بايع أسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور، ثم تخير منهم اثنى عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم أبو الهيثم بن التيهان وأسعد بن زرارة وأسيد بن حضير والبراء بن معرور ورافع بن مالك وسعد بن أبى خيثمة وسعد ين الربيع وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت والمنذر بن عمرو، ثم قال لهم: أنتم كفلاء على قومه ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومى.

ولأمر ما أراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا، فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم وعبد الله ابن أبى كبير الخزرج يقول: ما كان قومى ليفتاتوا على بشىء من ذلك.

هجرة المسلمين إلى المدينة:

ولما رجع الأنصار إلى المدينة ظهر بينهم الإسلام أكثر من المرة الأولى. أما رسول الله ﷺ وأصحابه، فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم فأمر عليه السلام جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة فصاروا يتسللون خيفة قريش أن تمنعهم.

وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فلحقت به.

وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه

بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم ما دام فى ذلك رضى الله ورسوله، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر، وعلى وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة، وقد أراد أبو بكر الهجرة فقال له عليه السلام: على رسلك [١] فانى أرجو أن يؤذن لى، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال: ورق السمر استعداداً لذلك.

دار الندوة:

أما قريش فكانوا أصيبوا بمس الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت، فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كى نستريح منه: فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقة وعذوبة لفظه.

وقال آخر: نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت فرفض هذا الرأى كسابقة لأنهم قالوا: إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل فى دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن فى غنى عنه.

وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً يجتمعون أمام داره فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها بل يرضون بالدية، فأقروا هذا الرأى.

هذا مكرهم ولكن إرادة الله فوق كل إرادة **﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [٢].

---

(١) الرسل : الرفق والتؤدة . يقال : افعل كذا على رسلك .

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

فأعلم نبيه بما دبره الأعداء فى سرهم وأمره باللحاق بدار هجرته بدار فيها ينشر الإسلام ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزة والمنعة.

وهذا من الحكمة بمكان عظيم فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون: إن قريشاً أرادوا ملك العرب فعمدوا إلى شخص منهم وأعزوا إليه أنه يدعى هذه الدعوة حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ولكنهم كانوا له أعداء ألداء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم.

هجرة المصطفى ﷺ:

فتوجه من ساعته إلى صديقه أبى بكر، وأعلمه أن الله قد أذن له فى الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال: نعم، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك فجهزاهما أحث الجهاز، وصنعت لهما سفرة [1] فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب واستأجر عبد الله بن أريقط من بنى الديل ابن بكر وكان هادياً ماهراً وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ثم فارق الرسول ﷺ أبا بكر ووعداه المقابلة ليلاً خارج مكة.

وكانت هذه الليلة هى ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله، فلما جاء ميعاد الخروج أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه كى لا يقع الشك فى وجوده أثناء الليل فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى على على ببردته وخرج على القوم وهو يقرأ: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [2].

فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، ولم يزل عليه السلام سائراً حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه.

أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم إنما باتوا يحرسون على بن أبى طالب لا محمد بن عبد الله هاجت عواطفهم فأرسلوا الطلب من كل جهة،

---

(١) السفرة : طعام يصنع للمسافر وما يحمل فيه هذا الطعام والمائدة إذا كان عليها طعام .

(٢) سورة يس الآية ٩ .

وجعلوا الجوائز لمن يأتى بمحمد أو يدل عليه، وقد وصلوا فى طلبهم إلى ذلك الغار الذى فيه طلبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر، فقال له عليه السلام ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ [١].

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن حلف فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقف ولقن فيدلج [٢] من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر.

ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسار متبعين طريق الساحل، وفى الطريق لحقهم طالباً سراقة بن مالك المدلجى وكان قد رأى رسل مشركى قريش يجعلون فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره.

فبينما هو فى مجلس من مجالس قومه بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليم وهم جلوس فقال: يا سراقة إنى رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه فعرف سراقة أنهم هم ولكنه أراد أن يثنى عزم مخبره عن طلبهم فقال: إنك فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبث فى المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتف وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع فى السماء مثل الدخان.

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠ .

(٢) الثقف الحاذق الفطن واللقن أى فهم حسن التلقى لما يسمعه ، ويقال أدلج القوم ساروا من أول الليل .

فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى، وداخله رعب عظيم فناداهما بالأمان فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم، ويقول سراقة: وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهم بما يريد بهم الناس وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له: أخف عنا فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمن فأمر أبا بكر فكتب. وبذلك انقضت هذه المشكلة التى أظهر الله فيها

مزيد عنايته برسوله.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم يخرجون إلى الحرة [1] حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد أن أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم [2] من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة يخفيهم أخرى، فقال اليهودى بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم أى حظكم الذى تنتظرون، فثاروا إلى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة.

النزول بقباء:

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكى أن ذلك كان فى اليوم الثانى من ربيع الأول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ وهذا أول تاريخ جديد [3] لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة، وهو مضيق عليه من مشركى قريش ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه، أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس.

هجرة الأنبياء:

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سُنة إخواته من الأنبياء من قبله فما من

---

(١) هى الأرض ذات الحجارة السود . (٢) تل والجمع تلول .

(٣) لما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة ولعد المخالفة بين مبدإ الهجرة وبدء السنة الهلالية جعلوا التاريخ اعتباراً من بداية السنه الهلالية التى حدثت فيها الهجرة .

نبى منهم إلا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها من إبراهيم أبى الأنبياء وخليل الله إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتى بعدهم من متبعيهم فى الثبات والصبر على المكاره، ما دام ذلك فى طاعة الله. فسل مصر وتاريخها تنبئك عن (إسرائيل) يعقوب وبنيه أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بينها ترحيباً بهم وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته.

ولما مضت سنون نسى فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم فاضطهدوا بنى إسرائيل وآذوهم فخرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه فى عبادته وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات).

ثم قال بعد: (افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم) وسل القرى حلت بها نقمة الله لكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة.

فلا غرابة أن هاجر عليه السلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [1].

أعمال مكة:

هذا ولنبين لك مجمل ما دعا إليه الرسول ﷺ بمكة من أصول الدين، وذلك أمران:

الأول ـ الاعتقاد بوحدانية الله وأن لا يشرك معه فى العبادة غيره سواء كان ذلك الغير صنماً كما يفعل مشركو مكة أو أباً أو زوجة أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى.

ولولا الاعتقاد بواحدانية الله ما كلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس.

(١) سورة الاحزاب الآية ٦٢ .

الثانى ـ الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوماً ثانياً للانسان يجازى فيه على ما صنعه فى الدنيا إن خيراً فخير وإن شراً فشر وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآى المكية فقلما نرى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى.

ونزل على رسول الله ﷺ بمكة من القرآن معظمة وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه وهى: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، النور، الأحزاب، القتال (أى سورة محمد) الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، هذه كلها مدنية وباقى القرآن مكى.

ولما نزل عليه السلام بقباء على شيخ بنى عمرو كلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم فى بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عذباً ونزل أبو بكر بالسنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخزرج.

مسجد قباء:

وأقام رسول الله بقباء ليال أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون وكانت المساجد على عهد رسول الله فى غاية من البساطة ليس فيها شىء مما اعتاده بناة المساجد فى القرون الأخيرة لأن الرسول ﷺ وأصحابه لم يكن جل همهم إلا منصرفاً لتزين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقى بها حر الشمس.

الوصول إلى المدينة:

ثم تحول عليه السلام إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدى سيوفهم، وهنا حدث ولاحرج عن سرور أهل المدينة فكان يوم تحوله إليهم يوماً سعيداً لم يروا فرحين بشىء فرحهم برسول الله ﷺ وخرجت النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر عـــلينا   مـــن ثنيات الوداع
وجب الشكر عـلينا   مـــا دعا لله داع

أيها المبعوث فـــينا جئت بالأمـــر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله.

أول جمعة:

وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فنزل وصلاها، وهذه أول جمعة له عليه السلام وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمته ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يمنيا وشمالا فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامة فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل؛ ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها تجزى، الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

النزول على أبى أيوب:

ثم ساروا، وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتضرع إليه أهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة، فيقول: دعوها فإنها مأمورة، ولم تزل سائره حتى أتت بفناء بنى عدى بن النجار وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبى أيوب الأنصارى، واسمه خالد بن زيد [1] وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام ههنا المنزل إن شاء الله ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [2].

فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه فى منزله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده وخرجت ولائد بنى النجار يقلن:

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد مـــن جار

(١) توفى زمن معاوية فى حصار القسطنطينية.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩.

فقال عليه السلام أتحبننى ؟ فقلن نعم، فقال: الله يعلم أن قلبى يحبكن.

واختار عليه السلام النزول فى الدور الأسفل من دار أيوب ليكون أريح لزائريه ولكن لم يرض رضى الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن أن يصيبه من التراب الذى يحدثه وطء الأقدام أو الماء الذى يهراق، فقد اتفق أن كسرت من زوجته جرة ماء بالليل فقام هو وهى بقطيفتهما التى ليس لهما غيرها يمسحان الماء خوفاً على رسول الله، ولذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان فى العلو [1]، وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سراة الأنصار كسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة، وأم زيد بن ثابت فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد.

نزول المهاجرون

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار فحكموا القرعة فما نزل مهاجر على أنصارى إلا بقرعة.

أخوة الاسلام

ومن يتأمل إلى هذه المحبة التى يستحيل أن تكون بتأثير بشر بل بفضل من الله ورحمته يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعَدد.

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى فى سورة الحشر: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [2].

وهذا أعلى درجات الأخوة وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم، فإن رسول الله. ليمكن بينهم الإخاء حتى آخى بين المهاجرين والأنصار فكان كل أنصارى ونزيله أخوين فى الله.

---

(١) وفى رواية أخرى أنه امتنع عن الانتقال شفقة على أصحابه .

(٢) سورة الحشر الآية ٩ .

ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقارىء أن هذه الأخوة أرقى بكثير من الأخوة العصبية، بل نكل ذلك للإحساس الإسلامى فإنه أفصح منطقاً من القلم [1].

وعلى الإجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً فى أجسام متفرقة وعسى الله أن يوفق مسلمى عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون وكان هذا الإخاء على المواساة والحق وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين: (تآخيا فى الله أخوين أخوين) ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله فى سورة الأحزاب ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [2].

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله وأرسل معهما عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه عليه السلام وسودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة، أما زينب فمنعها زوجها العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبد الله بن أبى بكر بأم رومان زوج أبيه، وعائشة أخته وأسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملاً بابنها عبد الله، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة.

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة فى البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى وكان رسول الله يعودهم فلما شكوا إليه الأمر قال: « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا فى مدها وفى صاعها وانقل وباءها إلى الجحفة » [3].

فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون فى المدينة بسلام.

---

(١) حتى إن أحد الأنصار حاول أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المهاجرى .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٣) قرية على اثنين وثمانين ميلاً من مكة .

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركوا مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص فكان عليه السلام يدعو لهم فى صلاته وهذا أصل القنوت، وقد حصل فى أوقات مختلفة ومحال فى الصلاة مختلفة فكان فى وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله فروى كل صحابى ما رآه وهذا سبب اختلاف الأئمة فى مكان القنوت.

السنة الأولى ـ بناء المسجد

ثم شرع عليه السلام فى بناء مسجده فى مبرك ناقته أمام محلة بنى النجار وكان محله مربداً للتمر يملكه غلامان يتيمان فى حجر ابن زرارة، فدعا الغلامين وساومهما ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى عليه السلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسويت وبالنخل فقطع، ثم أمر باتخاذ اللبن فأتخذ وشرعوا فى البناء به وجعلوا عضادتى الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ولا يزيد ارتفاعه عن القامه إلا قليلاً، وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين فى العمل، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة　　فارحم الأنصار والمهاجره [1]

وجعلت قبلة المسجد فى شماله إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثر فيه، فأمر عليه السلام بحصبه ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر وبنى جانبه حجرتان إحداهما لسودة بنت زمعه والأخرى لعائشة ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرهما إذ ذاك، وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج.

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلى

---

(١) ويقول بعض المؤرخين أنه كان يقرأ الشطرة الثانية فارحم المهاجرة والأنصار « وما علمناه الشعر وما

الأعلى، فيتبعون أوامره ويتجنبون نواهيه، ولذلك قال فى محكم كتابه فى سورة العنكبوت ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ [1].

وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً فى شئونهم واحتياجهم ويقووا روابط الألفة والاتحاد بينهم، ومتى حان وقت الصلاة فلا بد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهى حتى يكون الاجتماع عاماً، فأتمر النبى عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك.

فقال بعضهم ترفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل.

وقال الآخرون تشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً.

وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود فى عمل ما.

وأشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضاً.

وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت وقت الصلاة وينادى بها فقبل هذا الرأى وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصارى فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل « الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهد مرتين ثم قل لا إله إلا الله» فلما استيقظ توجه إلى النبى ﷺ وأخبره رؤياه فقال: إنها لرؤيا حق ثم قال له: لقن ذلك بلالاً فإنه أندى صوتاً منك ؟

وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة، والآخر عبد الله ابن أم مكتوم، وكان بلال يقول فى أذان الصبح بعد حى على الفلاح: « الصلاة خير من النوم » مرتين وأقره الرسول ﷺ على ذلك [2].

وكان عليه السلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ به الغافلون

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٣٥ .

(٢) وهو ما يسمى بالتثويب .

حتى ينتبهوا للسحور والثانى للصلاة.

أما الأذان للجمعة فكان أوله إذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر فلما كـان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخـر على الزوراء (رواه البخارى).

ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذى زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذى كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر فى العهد الأول بين يديه.

فعلم بذلك أن الأذان فى المسجد بين يدى الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء إلى الصلاة ومن هو فى المسجد لا معنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء فى المسجد ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج فى المدخل.

قال الحافظ فى فتح البارى: وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبى ﷺ فهو فى بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى أ هـ.

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله ﷺ فى أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فإذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع.

أما الإقامة وهى الدعوة للصلاة فى المسجد فقد اختلفت الروايات فى نصها فرواها محمد بن إدريس الشافعى مفردة، إلا لفظ قد قامت الصلاة فمثنى [١] ورواها مالك بن أنس مفردة وأبو حنيفة النعمان مثنى كلها.

يهود المدينة

وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش ابتلاهم فى المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند

(١) ولذلك يقال بتثنية ألفاظ الأذان وإفراد ألفاظ الإقامة إلا الإقامة أى لفظ قد قامت الصلاة فإنه يثنى.

أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوة فى ولد إسماعيل.

فكفروا بما أنزل الله بغياً مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التى أنزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان فإنه ميال بطبعه للترقى والرسول عليه السلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شىء من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدرج لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهى التى جاء بها الشرع الإسلامى لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين فى كثير من الأضاليل فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً حتى روضت عقولهم وهذبت نفوسهم وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التى تقتضيها ليكون التأثير فى النفوس أشد[1].

ولكن اليهود أرادوا غل يد القدرة على أن تفعل إلا ما يشتهون وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال فى سورة البقرة ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [2] ثم حتم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ [3].

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان.

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ فى مفاتيح الغيب للإمام الرازى.

(٢) سورة البقرة الآية ٩٤ . (٣) سورة البقرة الآية ٩٥ .

وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بنى قينقاع وهو عبد الله بن سلام [1] فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن وبعد أن كان اليهود يعدونه من روسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه.

فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، ولما استحكمت فى قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم فى إطفاء نوره ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

المنافقون

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أُبى ابن سلول[3]الخزرجى الذى كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ

ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً.

والأساس الذى كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن [4]، ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الأنصار ولكن لم يعهد أنه ولى ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملاً فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين.

وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام يعلمهم أنهم لا يثقون فى الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق، أو إظهار ما يخالف ما فى الفؤاد.

معاهدة اليهود

هذا وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين فى المدينة فئتان: اليهود، والمنافقون،

---

(١) بفتح اللام بدون تشديد .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٢ .
(٣) سلول هى أم عبد الله ومن هنا أثبتنا الألف فى ابن ورفعناه .
(٤) لنا الظاهر والله يتولى السرائر .

ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم [1] وعقد مع أولئك [2] عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحداً، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم.

(١) أي المنافقين .
(٢) أي اليهود .

الفصل الثانى: الغزوات والسرايا

مشروع القتال

قد علم مما تقدم أن رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحداً على الدخول فى الدين بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار.

وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآى ما يقويه على الصبر أما ما كان يلاقيه من أذى قريش، ومن ذلك قوله فى سورة الأحقاف ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾ (1).

وكان كثيراً ما يقص الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجأوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين، حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق.

فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة الحج ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ (2).

ثم أمرهم بذلك فى قوله فى سورة البقرة ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (3).

وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب.

فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركى العرب واتحدوا عليهم

---

(1) سورة الأحقاف .
(2) سورة الحج الآيتان ٣٩ ـ ٤٠ .
(3) سورة البقرة الآيات ١٩٠ ـ ١٩٣ .

مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله فى سورة التوبة ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ [1].

وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) [2].

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث إنهم ساعدوا المشركين فى حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله فى سورة الأنفال ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [3] وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادىء الآتية:

(١) ـ اعتبار مشركى قريش محاربين لأنهم بدأوا بالعدوان فصار حقاً للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين.

(٢) ـ متى رئى من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفى أو القتل.

(٣) ـ متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام .

(٤) ـ كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالإسلام أو يعطى الجزية عن يد وهو صاغر.

(٥) ـ كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه [4] والإسلام يقطع ما قبله.

وقد أنزل الله فى القرآن الكريم كثيراً من الآى تحريضاً على الإقدام فى قتال

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٦ .

(٢) راجع صحيح مسلم بشرح النووى الحديث ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٤) أما إذا فعل ما يبيح دمه من سرقة أو قتل أو زنا إلخ فلا بد من وقوع الحد أو القصاص .

الأعداء وتبعيداً عن الفرار من الزحف فقال فى الموضوع الأول فى سورة النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١). وقال فى الموضوع الثانى فى سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢).

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً (٣) وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسراتهم ولا بد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله ﷺ أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة ليكون فى ذلك عقاب لمشركى مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك أدعى لخذلانهم فى ميدان القتال الذى لابد أن يكون لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمن سفه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب فى الدين.

سرية (٤) حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر من ناحية العيص

ففى شهر رمضان أرسل عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليتعرض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص (٥).

فصادف العير هناك فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو

(١) سورة النساء الآية ٧٤ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) وذلك لأن العير هى الغالبة معهم لركوبهم وحمل بضائعهم .

(٤) السرية قطعة من الجيش وهى كل غزاة لم يكن فيها رسول الله ﷺ والتى كان فيها عليه السلام فهى غزوة.

(٥) عرض من أعراض المدينة أى ناحية منها .

الجهنى فأطاعوه وانصرفوا وشكر عليه السلام مجدياً على عمله لما كان من قلة عـدد المسلمين وكثرة عدوهم.

سرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ

وفى شوال أرسل عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة فى ثمانين راكباً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثة ليعترض عيراً لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ (1) فكان بينهم الرمى بالنبل.

ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركون إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين.

وفيات

وفى هذه السنة توفى من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع أسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ووضع على قبره حجراً وقال: أتعلم به قبر أخى وأدفن إليه من مات من أهلى.

وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور ترى فى عين الناظر كالأصنام ليأتى أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيراً ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ومن العبث فعل شىء لم يفعله رسول الله ﷺ مما يتعلق بأمور الآخرة (2).

ومات من الأنصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثنى عشر.

كان رضى الله عنه نقيب بنى النجار ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم.

---

(1) واد بين مكة والمدينة قرب البحر .

(2) وإنما هذه الأحجار علامات فقط .

ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذى كان يتكلم عن القوم فى العقبة الثانية.

ومات من مشركى مكة فى هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل: ما جزعك يا عم فقال والله ما بى جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبى كبشة بمكة فقال أبو سفيان: لا تخف إنى ضامن أن لا يظهر.

وفيها أيضاً مات العاص بن وائل السهمى. وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين.

السنة الثانية ـ غزوة ودان

ولاثنتى عشرة ليلة خلت من السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد ان استخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيراً فسار حتى بلغ ودان [1] وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته.

وفى هذه الغزوة صالح بنى ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا ثم رجع إلى المدينة بعد مضى خمس عشرة ليلة.

غزوة بواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آيبة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار إليها فى مائتين من المهاجرين وذلك فى ربيع الأول وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص فسار حتى بلغ بواط [2] فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيداً.

وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد فى تعمية أخبارهم عن أهل المدينة.

غزوة العشيرة

وأعقب رجوعه ﷺ خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها أموالهم

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال.
(٢) جهة جبال جهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع.

حتى لم يبق بمكة قرشى أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به فى تلك العير وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً فخرج لها الرسول فى جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين.

واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد مضت.

وحالف عليه السلام فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم، ثم رجع عليه السلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع.

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه السلام بقليل جاء كرز بن جابر الفهرى وأغار على سرح المدينة وهرب فخرج الرسول فى طلبه واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الأنصارى.

وحمل لواءه على بن أبى طالب فسار حتى بلغ سفوان [1] وفاته كرز فلم يلق حرباً، وتسمى هذه الغزوة بدراً الأولى.

سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة

وفى رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبد الله ابن جحش وأعطاه كتاباً مختوماً لا يفضه إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه.

فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه (إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم).

وإنما لم يخبرهم عليه السلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش.

ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة.

ثم سار عبد الله رضى الله عنه وفى أثناء السير تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان لأنهما أضلا بعيرهما الذى كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا

(١) واد من ناحية بدر .

نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم فحملوا عليهم فى آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير وهى أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم.

فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا فى الأشهر الحرم وعاتبهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم ﷺ: ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم فندموا فأنزل الله فى سورة البقرة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ [1] فسرى عنهم.

وقد طلب المشركون فداء أسيريهما فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية فى الأسيرين.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً.

تحويل القبلة

مكث عليه السلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس فى صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه فى السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو فى صلاته إذ أوحى الله اليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحول من وراءه. وكانت هذه الحادثه سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم [2].

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

(٢) راجع تفسير قوله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء ...** ﴾ فى تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

صوم رمضان

وفى شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التى بها يتم النظام فإن الإنسان مجبول على حب نفسه والسعى فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلا بد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الإنسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة.

زكاة المال

وفى هذا العام فرضت زكاة الأموال وهذه هى النظام الوحيد الذى به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين وحال عليها الحول وجب عليك أن تؤدى ربع عشرها أى اثنين ونصفاً فى كل مائة وما زاد فبحسابه.

وإذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدى منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع.

ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الإمام ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [1].

واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام مع عدم

(١) سورة التوبة الآية ٦٠ .

إضراره بالأغنياء مقلل لمصائب الفقر التى ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادىء تقويض العمران وتداعى الأمن لاكتساب أرزاقهم وحقوقهم فى الحياة.

غزوة بدر الكبرى:

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التى خرج لها عليه السلام وهى متوجهة إلى الشام فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها، فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه وقال: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فأجاب قوم وثقل آخرون لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يرد حرباً فإنه لم يحتفل بها بل قال: من كان ظهره حاضراً فليركب معنا.

ولم ينتظر من كان ظهره غائباً فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد أن ولى على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم، وكان معه عليه السلام ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: مائتان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يعتقبونها ، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدرى .

ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكباً ليأتى قريشاً ويخبرهم الخبر ، فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بن عبد المطلب فإنه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة .

وأراد أمية بن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل حيث قال كما رواه البخارى : سمعت من رسول الله يقول : إنهم قاتلوك قال : بمكة قال : لا أدرى ، ففزع لذلك وحلف أن لا يخرج فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل . ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فإن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه.

وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود عليهم لذلك وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمامهم القينات يغنين

بهجاء المسلمين ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ [1] .

وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأى من بعدهم فقال فى سورة الحشر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [2] وهكذا كان عمله فى هذه الواقعة ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [3] .

وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير .

أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ولم يكن خروجه إلا للعير فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير .

ولما بلغ الروحاء [4] جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً أو بعد فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم (أيها الناس إن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم العير : أو النفير) فتبين له عليه السلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ليستعينوا بما فيها من الأموال فقد قالوا : هلا ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [5] ثم قام المقداد بن الأسود رضى الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [6] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فدعا

(1) سورة الأنفال الآية ٤٨ .
(2) سورة الحشر الآية ١٦ .
(3) سورة الأنفال الآية ٤٨ .
(4) موضع على ثلاثين ميلا إلى الجنوب الغربى من المدينة .
(5) سورة الأنفال الآية ٧ .
(6) سورة المائدة الآية ٢٤ .

الناس، ثم قال عليه السلام: أشيروا على أيها الناس وهو يريد الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم. فإن فيها: يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فقال سعد بن معاذ سيد الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال: أجل، فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله.

فأشرق وجهه عليه السلام وسر بذلك وقال كما فى رواية البخارى: (أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم) فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بد حاصلة وحقيقة حصلت فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متبعاً ساحل البحر فنجا وأرسل إلى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نحضر بدراً [١] فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً.

فقال الأخنس بن شريق الثقفى لبنى زهرة وكان حليفاً لهم: ارجعوا يا قوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا ولم يشهد بدراً زهرى ولا عدوى، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادى بدر فنزلوا عدوته القصوى [٢] عن المدينة فى أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين فإنه لما قارب بدراً أرسل عليه السلام على بن أبى طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص السهميين فأتيا بهما والرسول عليه السلام قائم يصلى، ثم سألاهما عن أنفسهم فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لأنهما

---

(١) محلة بين مكة والمدينة وهي إلي المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية أيام .

(٢) عدوة الوادي : شاطئه . وراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير عند قوله تعالي : ﴿**إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوي**﴾ .

ظنا أن الغلامين لأبى سفيان، فقال الغلامان: نحن لأبى سفيان فتركاهما.

ولما أتم الرسول عليه السلام صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموها وإذا كذباكم تركتموها ؟ صـدقا والله، إنهما لقريش.

ثم قال لهما: أخبرانى عن قريش ؟ قالا: وراء هذا الكثيب، فقال لهما: كم هم؟ فقالا: لا ندرى. قال: كم ينحرون كل يوم. قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً ؟ قال: القوم ما بين التسعمائة والألف (١) ثم سألهما عمن فى النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً فقال عليه السلام لأصحابه: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها (٢).

ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء فى أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جُنب وبعضهم محدث فحدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم، فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاءوا.

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادى فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضأوا وملأوا الأسقية ولبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فإنه وحل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال. ومصداق هذا قوله تعالى فى سورة الأنفال: **﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾** (٣).

وقد أرى الله رسوله فى منامه الأعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلى العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

قال تعالى فى سورة الأنفال: **﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ**

(١) إذ البعير كان يكفي مائة من القوم .

(٢) قطع كبدها . (٣) سورة الأنفال الآية ١١ .

﴿ يُريكُمُوهُمْ إذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (١).

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الأنصارى وكان مشهوداً بجودة الرأى: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ما عداه من الآبار ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول عليه السلام: لقد أشرت بالرأى (٢).

ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغورت لينقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه. ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولا أطوع لك منهم رغبة فى الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك، فقال عليه السلام: أو يقضى الله خيراً من ذلك.

ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم ومناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى به).

وفى هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فإن عتبة بن ربيعة

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) ولذلك كان يعمل رسول الله ﷺ بالشوري فيما هو من أمور الدنيا ويقول أنتم أعلم بأمور دنياكم .

أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش ويحمل ما أصيب من عيره ودعا الناس إلى ذلك، فلما بلغ أبا جهل الخبر وسمه بالجبن وقال: والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومى وقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فاتبعه حمزة فقتله.

ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال: (وإن فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم).

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا: لا حاجة لنا بكم إنما نريد أكفاءنا من بنى عمنا فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب للأول وحمزة بن عبد المطلب للثانى وعلى بن أبى طالب للثالث.

فأما حمزة وعلى فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه وحمل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مخ ساقه وأضجعوه إلى جانب موقفه. فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة، فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب فى يده، فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال: استقم يا سواد، فقال أوجعتنى يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى من نفسك، فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه وقال استقد يا سواد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال عليه السلام: ما حملك على ذلك؟

فقال: يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك، فدعا له بخير.

ثم ابتدأ عليه السلام يوصى الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشحاً سيفه.

وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذاك الوقت كما جاء فى صحيح البخارى (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد) فقال أبو بكر: حسبك فإن الله سينجز لك وعدك.

فخرج عليه السلام من العريش وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ [1].

ثم قال عليه السلام يحرض الجيش: (والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلاً فله سلبه) [2] فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها: بخ بخ [3] ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل.

واشتد القتال وحمى الوطيس وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم، فلم تكن إلا ساعة حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أول القتال وأبو البخترى بن هشام والجراح والد أبى عبيدة قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقتل أمية بن خلف وابنه على اشترك فى قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر، وقد

---

(١) سورة القمر الآية ٤٥ .

(٢) السلب ما يسلب من القتيل من ثياب وسلاح ودابة .

(٣) بخ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر تقول بخ وبخ وتقول مكرراً بخ بخ وبخ بخ .

سعيا فى ذلك لما كان يفعله بهما أمية فى مكة.

ومن القتلى حنظلة بن أبى سفيان وأبو جهل بن هشام أثخنه فتيان صغيران من الأنصار لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله وأجهز عليه عبد الله بن مسعود وقتل نوفل بن خويلد قتله على بن أبى طالب وقتل عبيدة والعاصى والد أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية وقتل كثيرون غيرهم.

أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً قتل منهم عليه السلام وهو راجع عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين.

وكانت هذه الواقعة فى ١٧ رمضان وهو اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة.

وقد أمر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التى كان الرسول عليه السلام أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قليب بدر لأنه عليه السلام كان من سننه فى مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً لله ولما ألقى عتبة والد حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه ففطن الرسول عليه السلام لذلك فقال: لعلك دخلك من شأن أبيك شيء! فقال: لا والله ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام فلما رأيت ما مات عليه أحزننى ذلك، فدعا له الرسول عليه السلام بخير.

ثم أمر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذى رمى فيه المشركون فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً لله فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال: والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

وتقول عائشة رضى الله عنها: إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ثم قرأت ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى** ﴾ [1] و ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [2]، تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار (رواه البخارى).

ثم أرسل عليه السلام المبشرين فأرسل عبد الله بن أبى رواحة لأهل

(١) سورة الروم الآية ٥٢ . (٢) سورة فاطر الآية ٢٢ .

العالية[1] وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله.

وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول. والمسلمين عادة الأعداء فى إذاعة الضراء يقصدون بذلك فتنة المسلمين فجاء أولئك المبشرون بما سر أهل المدينة وكان ذلك الوقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان.

ثم قفل رسول الله راجعاً وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين فى قسمة الغنائم، فالشبان يقولون كنا ردءاً لكم فنشارككم.

الاختلاف فى الأنفال ونزول سورتها

ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف ويزرع فى القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [2] فسطع على أفئدتهم نور القرآن فتألقت بعد أن كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس.

وأدخل فى الأسهام بعض من لم يحضر لأمر كلف به وهم: أبو لبابة الأنصارى لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة، والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه السلام خلفه على بنى عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه، والحارث بن الصمة وخوات بن جبير لأنهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية يمرضها، وعاصم بن عدى لأنه خلفه على أهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذى جرح فى المبارزة الأولى، فإنه رضى الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء.

---

(١) قري بظاهر المدينة وهي العوالي .

(٢) سورة الأنفال الآية ١ .

ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر عـــــلينا مـــــن ثنيات الوداع
وجب الشكر عـــلينا ما دعــــــا لله داع
أيها المبعوث فــــينا جئت بالأمــــر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر ابن الخطاب يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من فلان، لقريب له، فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس وعلياً من أخيه عقيل لله وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. ووافقه على ذلك سعد ابن معاذ وعبد الله بن رواحة، وقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا قوة لنا على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً.

فقال عليه السلام: إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال ﴿ **فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ (٢) ورأى عليه السلام رأى أبى بكر بعد أن مدح كلا من الصالحين لأن الوجهة واحدة وهى إعزاز الدين وخذلان المشركين ثم قال لأصحابه: أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول فى أمر الأسرى فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم أن لا يفعلوا كيلاً يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا على أن لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم وتواصوا فيما بينهم أن لايعجلوا فى طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٢) سورة نوح الآية ٣٦ .

فلم يلتفت إلى ذلك المطلب بن أبى وداعة السهمى وكان أبوه من الأسرى فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعثت قريش فى فداء أسراها وكان أربعة آلاف إلى ألف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه.

ومن الأسرى عمرو بن أبى سفيان ولما طلب من أبيه فداءه أبى وقال: والله لا يجمع محمد بين ابنى ومالى دعوه يمسكوه فى أيديهم ما بدا لهم. فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصارى معتمراً فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو فمضى قوم سعد إلى رسول الله ﷺ وأخبروه فأعطاهم عمراً ففكوا به سعداً.

ومن الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول وكان عليه السلام قد أثنى عليه خيراً فى مصاهرته فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبى العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبى لهب بابنتى الرسول فامتنع وقال: والله لا أفارق صاحبتى وأحب أن لى بها امرأة من قريش، ولما أسر أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها.

فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا قلادتها فافعلوا، فرضى الأصحاب بذلك فأطلقه عليه السلام بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة لله فلما وصل إلى مكة أمرها باللحاق بأبيها وكان الرسول أرسل لها من يأتى بها فاحتملوها.

هذا ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح رد عليه امرأته بالنكاح الأول.

ومن الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب: دعنى يا رسول الله أجزع ثنيتى سهيل

يدلع [1] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً، فقال عليه السلام: (لا أمثل فيمثل الله بى، وإن كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه) وقدم بفدائه مكرز بن حفص ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء.

هذا وقد حقق الله خبر الرسول فى سهيل فإنه لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل من الأعراب فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ألم تعلموا أن الله قال ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ [2] وقال: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾ [3] ثم قال والله إنى أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها فلا يغرنكم هذا (يعنى أبا سفيان) من أنفسكم فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وكلمته تامة وإن الله ناصر من نصره ومقود دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه. فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا. .

ومن الأسرى الوليد بن الوليد افتداه أخواه خالد وهشام فلما افتدى ورجع إلى مكة أسلم فقيل له: هلا أسلمت قبل الفداء فقال: خفت أن يعدوا إسلامى خوفاً.

ولما أراد الهجرة منعه أخوة ففر إلى النبى فى عمرة القضاء.

ومن الأسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية فى تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن إدريس الشافعى.

ومنهم وهب بن عمير الجمحى كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الإيذاء لرسول الله ﷺ، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير والله لولا دين على ليس عندى قضاؤه وعيال أخشى الفقر بعدى كنت آتى محمداً فإن ابنى أسير فى أيديهم، فقال صفوان:

---

(١) يخرج.

(٢) سورة الزمر الآية ٣٠.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

دينك على وعيالك مع عيالى فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة.

فبينا عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشر، ثم قال للنبى عليه السلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: أدخله على لله فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله لله فلما رآه عليه السلام قال: أطلقه يا عمر، أدن يا عمير فدنا وقال: انعموا صباحاً، فقال عليه السلام: قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهى السلام، ثم قال: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف؟ قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال عليه السلام: اصدقنى ما الذى جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك لله قال عليه السلام: كلا بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر [1] وقلتما كيت وكيت. فأسلم عمير وقال: كنا نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان !! فقال عليه السلام: فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره.

فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه.

ومن الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير مر به أخوه فقال للذى أسره: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه. فقال له يا أخى هذه وصايتك بى ! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم.

ومن الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كان قد خرج لهذه الحرب مكرها ولما وقع فى الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب، فقال: علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج ؟ فقال عليه السلام: لقد كنت فى الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه، ثم قال للرسول لقد تركتنى فقير قريش ما بقيت، قال: كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً وقلت لها إن مت فقد تركتك غنية ! فقال العباس والله ما اطلع على ذلك أحد.

وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فإنه عليه السلام لم يعف عمه مع علمه بأنه إنما خرج مكرها وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا

(١) أي حجر الكعبة.

العدل، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾ [1].

ومن الأسرى أبو عزة الجمحى الشاعر كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال: يا محمد إنى فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن، فمن عليه فضلاً منه.

العتاب فى الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [2].

نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار، وعاتب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية، ولولا حكم سابق من الله أن لا يعاقب مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح. وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل بناء على رأى كثير من الصحابة.

وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم فى قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [3].

وهذه الغزوة هى التى أعز الله بها الإسلام وقوى أهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم، فهى آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائدة، ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر ﴿ **وَلَقَدْ**

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(٢) سورة الأنفال الآيتان ٦٧ ، ٦٨.

(٣) سورة الأنفال الآية ٧٠.

﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [1] أى قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله .

فهى أعظم غزوات الإسلام إذ بها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للإسلام ودخل الرعب فى قلوب العرب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال، فلا جرم [2] أن شكرنا العلى الأعلى على هذه العناية واتخذنا يوم النصر فى بدر وهو السابع عشر من رمضان عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين.

غزوة بنى قينقاع

هذا، وإذا كان للشخص عدوان فانتصر على أحدهما حرك ذلك شجو الآخر وهاج فؤاده فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بنى قينقاع عند تمام الظفر فى بدر فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار [3]، وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم فى المستقبل إذا شبت الحرب فى المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله فى سورة الأنفال ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ [4] إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [5].

فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد فقالوا: يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس، وكانوا أشجع يهود فأنزل الله فى سورة آل عمران ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [6] وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٣ .

(٢) يقال لا جرم لأفعلن كذا أي لا بد ولا محالة أو حقاً.

(٣) حالوا أن يجبروها علي كشف وجهها فوقعت هنالك معركة بين المسلمين واليهود.

(٤) أي فاطرح لهم العهد علي طريق مستو،قصد بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب.

(٥) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٦) سورة آل عمران الآيتان ١٢ ، ١٣ .

أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبد الله بن أبى وقال: إنى رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعليماً للمسلمين فى سورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ [١].

وعندما تظاهر يهود بنى قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار إليهم عليه السلام فى نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه حمزة، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصارى فحاصرهم خمس عشرة ليلة.

جلاء بنى قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه السلام ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا إلى أذرعات [٢] ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا وخمس عليه السلام أموالهم وأعطى سهم ذوى القربى لبنى هاشم ولبنى المطلب دون بنى أخويهما عبد شمس ونوفل.

ولما سئل عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد فى الجاهلية والإسلام هكذا وشبك بين أصابعه.

غزوة السويق

كان أبو سفيان متهيجاً لأنه لم يشاهد بدراً التى قتل فيها ابنه وذوو قرباه فحلف أن لا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً وليبر بقسمه [٣] خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بنى النضير ليهيجهم

(١) سورة المائدة الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

(٢) بلد بالشام .

(٣) إذا أقسم ألا يمس ماء ولا يقرب النساء .

ويستعين بهم على حرب المسلمين، فأتى سيدهم حيى بن أخطب فلم يرض مقابلته فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به ثم خرج من عنده وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة فحرقوا فى بعض نخلها ووجدوا أنصارياً فقتلوه.

ولما علم بذلك رسول الله خرج فى أثرهم فى مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذى الحجة بعد أن ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسراع فألقوا ما معهم من جرب السويق فأخذه المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق.

صلاة العيد

وفى هذا العام سن الله للعالم الإسلامى سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء ويقووا عروة الدين الوثقى وهى الاجتماع فى يومى عيد الفطر وعيد الأضحى.

وكان عليه السلام يجمع المسلمين فى صعيد واحد يصلى بهم ركعتين تضرعاً إلى الله أن لا يفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم ثم يخطبهم حاضاً لهم على الائتلاف ومذكراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين فبعد الفطر زكاته وبعد الأضحى تضحيته، نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويوفقنا لأعمال سلفنا.

زواج على بفاطمة عليهما السلام

وفى هذه السنة تزوج على بن أبى طالب وعمره إحدى وعشرون سنة، بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله بنو الحسن والحسين وزينب.

(وفيها) دخل عليه السلام بعائشة بنت أبى بكر وسنها إذ ذاك تسع سنوات.

يا لله يقضى على الشقى بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر فيتخذ العذر رداء والخيانة شعاراً فلا ينجح معه إلا إراحة العالم من شره.

هذا كعب بن الأشرف اليهودى عظيم بنى النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برقع الحياء وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد فى إثارة الشحناء بين المسلمين، فكلما جبر عليه السلام كسرا هاضه هذا الشقى بما ينفثه من سموم لسانه.

قتل كعب بن الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرنين فى الحبال خرج إلى قريش يبكى قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين فقال عليه السلام: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ؟! فقال محمد بن مسلمة الأنصارى الأوسى: أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: أنا لك به وأذن لى أن أقول شيئاً أتمكن به [(1)]، فأذن له ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له: إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإنى قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضاً والله لتملنه قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين. قال: نعم ولكن ارهنونى. قالوا: أى شىء تريد ؟ قال: ارهنونى نساءكم قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال: فارهنونى أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة (يعنى السلاح): فرضى.

فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد ابن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر وكلهم أوسيون.

فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته أين تخرج الساعة

---

(١) أى أن يقول شيئاً يظهر فيه كرهه للرسول ﷺ .

وانك امرؤ محارب ؟ فقال: إنما هو ابن أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب.

ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءنى فإنى آخذ بشعره فأشمه فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل إليهم كعب متوشحاً سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب أتأذن لى أن أشم رأسك قال: نعم فشمه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التى كان يقصدها بهم.

ثم أتوا النبى فأخبروه وكان قتل هذا الشقى فى ربيع الأول من هذا العام وكان عليه السلام إذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره.

وقد فعل كذلك مع أبى عفك اليهودى وكان مثل كعب فى الشر.

غزوة غطفان

بلغ رسول الله أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دعثور يريدون الغارة على المدينة فأراد عليه السلام أن يغل أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء فخرج إليهم من المدينة فى أربعمائة وخمسين رجلاً لثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وخلف على المدينة عثمان بن عفان.

ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رءوس الجبال ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمر فعسكروا به.

وحدث أنه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون فأبصره دعثور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال: من يمنعك منى يا محمد ؟ فقال الله. فأدركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده، فتناوله عليه السلام وقال لدعثور: من يمنعك منى ؟ قال: لا أحد فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام، وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه إلى محبته وجمع الناس له ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن**

يَشَاءُ﴾[1].

وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [2].

غزوة بحران

بلغه عليه السلام أن جمعاً من بنى سليم يريدون الغارة على المدينة فسار إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الأولى وخلف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل إلى بحران [3] تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع.

سرية زيد بن حارثة إلى القردة

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق فى وجه تجارتهم ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم أرسلوا عيراً إلى الشام من طريق العراق وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى.

فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة فى مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك فى جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد فأخذت العير وما فيها وهرب الرجال، وقد خمس الرسول عليه السلام هذه حينما وصلت له.

غزوة أحد

لما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر وأغلقت فى وجوههم طرق التجارة، اجتمع من بقى من أشرافهم إلى أبى سفيان رئيس العير التى جلبت المصائب وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلمت لأصحابها بعد فقالوا: إن محمداً قد وترنا

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٣) موضع بناحية الفرع وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة .

وقتل خيارنا وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار.

فجمعوا لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الأوسى، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعه عدد ممن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبى عزة الشاعر الذى لا ينسى القارىء أن الرسول من عليه ببدر وأطلقه من غير فداء: إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك فقال: إنى عاهدت محمداً أن لا أعين عليه وأخاف إن وقعت فى يده مرة ثانية أن لا أنجو فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين، ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياً له اسمه وحشى وكان رامياً قلما يخطىء فقال له: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فأنت حر.

ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة.

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه العباس بن عبد المطلب الذى لم يخرج مع المشركين فى هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبى، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم فأشاروا عليه بالخروج وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب.

وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً فصلى الجمعة بالناس فى يومها لعشر خلون من شوال وحضهم فى خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ما صبرتم).

ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين [1] وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره. ولما رأى ذوو الرأى من الأنصار أن الحداث استكرهوا الرسول على الخزرج لاموهم وقالوا: ردوا الأمر لرسول الله فما أمر ائتمرنا فلما خرج عليه السلام قالوا: يا رسول الله نتبع رأيك فقال: ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن الحضير، وخرج من المدينة بألف رجل. فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى من اليهود فقال إنا لا نستعين بكافر على مشرك، وأمر بردهم لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى فى الخيانة.

ثم استعرض الجيش فرد من استصغر وكان فيمن رد: رافع بن خديج وسمرة بن جندب ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام فبكى سمرة وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله رافعاً وردنى مع أنى أصرعه فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه.

ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس وفى السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط وهو بستان بين أُحد والمدينة رجع عبد الله بن أبى بثلاثمائة من أصحابه وقال: عصانى وأطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر بن عبد الله وقال يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ﴿ **قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ [2] فقال له: أبعدكم الله فسيغنى الله عنكم نبيه.

ولما فعل ذلك عبد الله بن أُبى همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله.

وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقول نتركهم، فأنزل الله فى سورة النساء: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ**

(١) أى لبس درعاً فوق درع .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٧ .

أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ [1].
ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أُحد [2] وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة.

أما المشركون فنزلوا ببطن الوادى من قبل أُحد على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية.

فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بإزاء خالد، وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال: ولا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموها ظهروا علينا فلا تبرحوا. ثم عدل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين.

وكان فيما قال: ألقى فى قلبى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وان أبطأ عنها فاتقوا ربكم وأجملوا فى طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى له سائر جسده.

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله، ثم حمل اللواء طلحة بن أبى طلحة فقتله على، فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة، فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبى طلحة بسهم قضى عليه، فتناوب اللواء بعده أربعه من أولاد طلحة بن أبى طلحة وكلهم يقتلون، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبى بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له، فقال عليه السلام: متعنا يا أبا بكر، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفى كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون.

ولما التقت الصفوف وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدون الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد

---

(١) سورة النساء الآية ٨٨ .

(٢) جبل شمالى المدينة الشرقى .

النساء يقول: (اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل، حسبى الله ونعم الوكيل).

وفى هذه المعمعة قُتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافلة وحشى وهو يجول فى الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه.

هذا، ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر أحد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب.

فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا: ما لنا فى الوقوف من حاجة، ونسوا أمر السيد الحكيم ﷺ فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون. أما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منهم.

فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء وأشاع أن محمداً قد قتل فدخل الفشل فى المسلمين حتى قال بعضهم: علام نقاتل إذا كان محمداً قد قتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم، وقال جماعة: إذا كان محمد قد قتل فقاتلوا عن دينكم.

وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة المسلمين من بينهم الوليد ابن عقبة وخارجة بن يزيد ورفاعة بن يعلى وعثمان بن عفان وتوجهوا إلى المدينة ولكنهم استحيوا أن يدخلوها بعد ثلاث.

وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة منهم أبو طلحة الأنصارى استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته وكان رامياً شديد الرمى فنثر كنانته بين يدى رسول الله وصار يقول: وجهى لوجهك فداء، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه السلام: انثرها لأبى طلحة، وكان ينظر إلى القوم ليرى ماذا يفعلون فيقول له أبو طلحة: يا نبى الله بأبى أنت وأمى، لاتنظر سهم من سهام القوم! نحرى دون نحرك.

وممن ثبت سعد بن أبى وقاص فكان عليه السلام يقول له: ارم سعد ! فداك أبى وأمى [1].

ومنهم سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس.

ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى تترس على رسول الله فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه.

وكان يقاتل عن الرسول زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات.

وقد أصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات فقد أقبل أُبى بن خلف يريد قتله فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال: خلوا طريقه، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع، ولم يقتل رسول الله غيره لا فى هذه الغزوة ولا فى غيرها.

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول فى حفرة منها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذ على بيده ورفعه طلحة بن عبد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائماً فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبى بلتعة فقتله، وشج وجهه عليه السلام عبد الله ابن شهاب الزهرى وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت فى ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليه السلام: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ؟ فأنزل الله فى سورة آل عمران ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [2].

وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصارى فنادى: يا معشر المسلمين أبشروا، فأشار إليه الرسول أن اصمت. ثم سار بين

(١) ولم يجمع أبويه لأحد غير سعد .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

سعد بن أبى وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب ومعه جمع منهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله ابن المغيرة يقول: أين محمد لا نجوت ان نجا فعثر به فرسه ووقع فى حفرة فمشى إليه الحارث بن الصمة وقتله. ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان على يسكب الماء ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم. ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة التى فى الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال: لا ينبغى لهم أن يعلونا، اللهم إلا قوة لنا لا بك ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة فأنزلوهم.

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحيطون رسول الله كثير من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة.

أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار ومن المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ومن الأنصار حنظلة بن أبى عامر وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله فأتت زوج عمر وهند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أُحد فرجعوا.

وقُتل سعد بن الربيع وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق فقيل له إن رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه: قل لقومى يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندى عذر وقتل أنس بن النضر عم أنس بن مالك فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال: يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده موتوا على ما مات عليه إخوانكم فلم يزل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه.

ومثلت قريش بقتلى أُحد حتى إن هنداً زوج أبى سفيان بقرت بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها ثم أرسلتها وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء.

ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته: نعمت فعال إن الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل، ثم قال ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى.

ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ولم يعرجوا على المدينة وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا فى ذلك اليوم وإلا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم.

ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذى قتل فيه وكان يدفن الرجلين والثلاثة فى لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب فكان يشق عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة.

ولما رجع المسلمون الى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون وأظهروا ما فى قلوبهم من البغضاء وقالوا لإخوانهم ﴿ **لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا** ﴾ [1].

وهذا الذى ابتلى به المسلمون درس مهم لهم يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا.

أولهما: طاعة الرسول فى أمره فقد قال للرماة: لا تبرحوا مكانكم إن نحن نصرنا أو قهرنا فعصوا أمره ونزلوا.

والثانى: أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التى كثيراً ما تكون سبباً فى مصائب عظيمة وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حتى عوقبوا.

وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران التى فصلت غزوة أحد ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [1] فسبب هذا الابتلاء: التنازع فينبغى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٦ .

الاتفاق. والفشل: فينبغى الثبات، والعصيان: فينبغى طاعة الرئيس. نسأل الله التوفيق.

غزوة حمراء الأسد

لما رجع عليه السلام إلى المدينة أصبح حذراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم، فنادى فى أصحابه بالخروج خلف العدو، وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابتهم القرح، فضمدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه على بن أبى طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد [٢].

وقد كان ما ظنه الرسول حقاً، فإن المشركين تلاموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر فأصروا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروج الرسول فى أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس وألقى الله الرعب فى قلوبهم فتمادوا فى سيرهم إلى مكة وظفر عليه السلام وهم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى من عليه ببدر بعد أن تعهد أن لا يكون على المسلمين فأمر بقتله، فقال: يا محمد أقلنى وامنن على ودعنى لبناتى وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت.

فقال عليه السلام: لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمداً مرتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، اضرب عنقه يا زيد فضرب عنقه.

وفى هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف فإن الرجل الذى لا يحترز مما أصيب منه ليس بعاقل فلا بد من الحزم لإقامة دعائم الملك.

حوادث وقعت فى ذلك الزمان

وفى هذة السنة زوج عليه السلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده، ولذلك كان يسمى ذا النورين.

وفيها تزوج عليه السلام: حفصة بنت عمر بن الخطاب وأمها أخت عثمان

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٢) موضع على ثمانية أميال من المدينة إلى طريق مكة .

ابن مظعون وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمى رضى الله عنه فتوفى عنها بجراحة أصابته ببدر.

وفيها تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بنى هلال بن عامر كانت تدعى فى الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها بأحد وهى أخت ميمونة بنت الحارث لأمها.

وفيها ولد الحسن بن على رضى الله عنهما.

وفيها حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدرج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة.

وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها، لأن المنكر إذا أسند تحريمه لحادثة أقر الجميع على تقبيحها كان ذلك أشد تأثيراً فى النفس.

فأول ما بين فيها قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ (١) فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ومنفعة الخمر تقوية الجسم.

ولما شربها بعض المسلمين وخلط فى القراءة حرمت الصلاة على السكران، فقال تعالى فى سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾ (٢).

ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ**(٣) **وَالأَزْلامُ**(٤) **رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾(٥) وقد أجاب المسلمون

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩ .
(٢) سورة النساء الآية ٤٣ .
(٣) هى حجارة تصب عليها دماء الذبح .
(٤) هى القداح التى كانوا يقتسمون بها .
(٥) سورة المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

على ذلك بقولهم: انتهينا، فليجب المسلمون الآن.

حوادث السنة الرابعة:

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه السلام، فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وعقد له لواء وقال له: سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغر عليهم، وأرسل معه رجالاً فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً [1] فأغار عليهم فهربوا عن منازلهم ووجد أبو سلمة إبلاً وشاء فأخذها ولم يلق حرباً ورجع بعد عشرة أيام من خروجه.

وفي بدئها أيضاً بلغه عليه السلام أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي المقيم بعرنه [2] يجمع الجمع لحربه فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني وحده ليقتله فاستأذن رسول الله ﷺ أن يتقول حتى يتمكن فأذن له وقال: انتسب لخزاعة فخرج لخمس خلون من المحرم، ولما وصل إليه قال له سفيان: ممن الرجل ؟ قال: من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، فقال له: أجل إني لفي الجمع له، فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلي حديثه، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام فقام وقتله ثم ارتحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب ـ وكفى الله المؤمنين القتال.

سرية عاصم بن ثابت الأنصاري

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط عضل والقارة الذين جاءوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين أمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا الرجيع [3] غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبد الله بن أنيس فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتي

(1) جبل لبني أسد بناحية شرقي المدينة.
(2) موضع قريب من عرفات
(3) ماء لبني هذيل بين مكة وعسفان.

رام واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم، فلما أحس بهم رجال السرية لجأوا إلى جبل هناك فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد أن لا نقتلكم فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول فى ذمة مشرك.

ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه، وأما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثأر عند المسلمين وهناك قُتلا.

وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدى حين أرادوا قتله:

ولست أبالى حــــين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشـــأ يبارك على أوصال شـــلو ممزع

سرية المنذر بن عمرو ومعه القراء إلى بئر معونة

فى صفر وفد على رسول الله أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من رءوس بنى عامر فدعاة عليه السلام إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال: إنى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معى رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال عليه السلام: إنى أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو عامر: أنا لهم جار.

فأرسل معه المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه كانوا يسمون القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن فساروا حتى نزلوا بئر معونة [1] فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بنى عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بنى عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم وهم رعل وذكوان وعصية فأجابوه وذهبوا معه حتى إذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم ولم ينج إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم وعمرو بن أمية كان فى سرح القوم.

(١) شرقى المدينة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم .

وأُبلغ عليه السلام خبر القراء فخطب فى أصحابه، وكان فيما قال: (إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وإنهم قالوا ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضى عنا).

وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع فى يوم واحد فحزن عليهم ﷺ حزناً شديداً وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً فى الصلاة.

غزوة بنى النضير

يالله ما أسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم ويشتتهم من ديارهم.

وهذا ما حصل ليهود بنى النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ولكن بنى النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغيا.

فبينما رسول الله ﷺ وبعض من أصحابه فى ديار النضير إذا ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو، فاطلع عليه السلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم: اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم من الغدر (إذ الحزم كل الحزم أن لا يتهاون الإنسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم إخوانهم المنافقون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ⑪ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ** ﴾ [1].

ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء فأمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وأعطى

(١) سورة الحشر الآيتان ١١ ، ١٢ .

رايته علياً أما بنو النضير فتحصنوا فى حصونهم وظنوا أنها ما نعتهم من الله، فحاصرهم عليه السلام ست ليال، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى إلى تسليمهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أُبى مساعدة بل خذلهم كما خذل بنى قينقاع من قبلهم، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ففعل، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون.

ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ومنهم أكابرهم حى بن أخطب وسلام ابن أبى الحقيق، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب.

ولم يخمس رسول الله ما أخذ من بنى النضير فإنه فىء لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ومثل هذا يكون لمعدات الحرب وللرسول يطعم منه أهله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما قال تعالى فى سورة الحشر: **﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾** [1] فأعطى عليه السلام من هذا الفىء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم، وأخذ عليه السلام أرضاً يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً.

غزوة ذات الرقاع

وفى ربيع الآخر بلغه عليه السلام أن قبائل من نجد يتهيأون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة فتجهزوا لهم وخرج فى سبعمائة مقاتل وولى على المدينة عثمان بن عفان، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا فى رءوس الجبال.

ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضاً، ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلون

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

صلى بالمسلمين صلاة الخوف، فألقى الله الرعب فى قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه ﷺ .

ومال الإمام البخارى إلى أن هذه الغزوة كانت فى السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه.

غزوة بدر الآخرة

لما أهل شعبان هذا العام كان موعد أبى سفيان، فإنه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين: موعدنا بدر العام المقبل، فأجابه الرسول إلى ذلك.

وكان بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة فى شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً فلما حل الأجل وقريش مجدبون، لم يتمكن أبو سفيان من الإيفاء بوعده فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد فاستأجر نعيم بن مسعود فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [1] ولم يلتفت عليه السلام لهذا الإرجاف اتكالاً على ربه بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه واستخلف على المدينة عبد الله بن أُبى ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظاناً أن إرجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون فسار حتى أتى مجنة وهى سوق معروفة من ناحية مر الظهران فقال لقومه إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا.

أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم فى تجارته أحد ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ [2] ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبى سفيان: قد نهيتك أن تعد القوم قد اجترأوا علينا ورأوا أنا أخلفناهم.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٤ .

وفى هذا العام ولد الحسين بن على، وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين، وفيه توفى أبو سلمة رضى الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة، وأول من هاجر إلى الحبشة، وفيه تزوج عليه السلام أم سلمة هنداً زوج أبى سلمة بعد وفاته.

السنة الخامسة. غزوة دومة الجندل [1]

فى ربيع الأول من هذا العام بلغ النبى ﷺ أن جمعاً من الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مر بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة فتجهز لغزوتهم، وخرج فى ألف من أصحابه بعد أن ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى.

ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم فلما بلغهم الخبر تفرقوا، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم فأصيب من أصيب وهرب من هرب ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحداً وبث السرايا فلم يجد منهم أحداً فرجع عليه السلام غانماً، وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزارى وهو الذى كان يسميه عليه السلام الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه ألف قناة، وأقطعه عليه السلام أرضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، لأن أرضه كانت قد أجدبت.

غزوة بنى المصطلق

فى شعبان بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين فى أحد الجموع لحربه فخرج له عليه السلام فى جمع كثير، وولى على المدينة زيد بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا.

وفى أثناء مسيره عليه السلام التقى بعين بنى المصطلق فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله.

---

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة بسير الجمال .

ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضهم، ولما وصل المسلمون إلى المريسيع [1] تصاف الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفى بعير والشياه خمسة آلاف واستعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الأسرى بريدة.

وكان فى نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين.

وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم، فإن بنى المصطلق من أعز العرب داراً فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التى سماها جويرية فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا فمنوا عليهم بالعتق.

فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضى الله عنها.

وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وقد حصل فى هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين.

فأولاهما أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجير المهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال: ما بال دعوى الجاهلية ؟ (وهى ما يقال فى الاستغاثة يا لفلان) فأُخبر الخبر، فقال: دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة.

---

(١) ماء لخزاعة .

فلما بلغ عبد الله بن أُبى هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال: ما رأيت كاليوم مذلة أوقد فعلوها؟ نافرونا فى ديارنا والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قــال الأول: « سمن كلبك يأكلك » أما والله ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [1]، ثم التفت إلى من معه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموها بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، وأما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده، وكان فى مجلسه شاب حديث السن قوى الإسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت، فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته. قال: لعله أخطأ سمعك فاستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبى أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك وقال كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

ثم أذن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم فى هذا الموضوع فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت ؟ فقال: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً، وكلم رجال من الأنصار عبد الله ابن أبى فى أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر.

وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التى فضحت عبد الله بن أبى وإخوانه وصدقت زيد بن أرقم.

ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبى استأذن رسول الله فى قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد، فأمره عليه السلام بالإحسان إلى أبيه.

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨ .

(النادرة الثانية) وهى أفظع من الأولى وأجلب منها للمصائب وهى رمى عائشة الصديقة زوج رسول الله بالإفك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمى، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه السلام ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها فإذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه.

فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كن إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم فلن يستنكر القوم خفة الهودج وكانت عائشة جارية حديثه السن فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب فغلبتها عيناها فنامت.

وكان الذى يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل فأصبح عند منزلها فعرفها لأنها كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها فأناخ راحتله وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة. ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الإفك وقالوا ما قالوا فى عائشة وصفوان.

والذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك وهى لا تشعر بشىء.

وكانت تعرف فى رسول الله رقة إذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها فى هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: كيف تيكم ؟ مما جعلها فى ريب عظيم، فلما نقهت خرجت هى وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الإفك للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت: تعس مسطح ! فقالت عائشة: بئس ما قلت !! أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: يا هنتاه أولم تسمعى ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها. ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض فى بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها

عما يقول الناس فقالت: يا بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها.

فقالت عائشة: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ! وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وفى خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيراً.

وقال على بن أبى طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك. فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك ؟ فقالت: والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه غير أنها جارية حديثه السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله.

فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى والله ما علمت على أهلى إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلى إلا معى.

فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أعذرك منه فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة الخزرجى وقال: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يقتل.

فقام أسيد بن حضير، وقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا.

أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم. وبينما هى مع أبويها إذ دخل النبى عليه السلام فسلم ثم جلس فقال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف وتاب الله عليه، فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها: أجيبا رسول الله، فقالا: والله ما ندرى ما نقول، فقالت: إنى

والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

فسرى عن رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها أمها قومى واشكرى رسول الله، فقالت لا والله لا أشكر إلا الله الذى برأنى.

وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالإفك ثمانين جلدة وهى حد القاذف، وكانوا ثلاثة: حمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت.

(١) سورة يوسف الآية ١٨ .
(٢) سورة النور الآيات من ١١ الى ٢١ .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه، فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة فأنزل الله ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] ؟ فقال أبو بكر بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مسطح.

فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فمتى رأوا باباً لها ولجوه فنعوذ بالله منهم.

غزوة الخندق

لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا أملاكهم فذهب جمع منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضهم على حرب رسول الله ومنوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه.

ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحاً.

فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف بعير.

وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى إحسان رسول الله كفراً فإنه كما قدمنا أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس.

وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخيلة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة.

وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى، وعدة الجميع عشرة

---

(١) سورة النور الآية ٢٢ .

آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان.

ولما بلغه عليه السلام أخبار هذه التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟

فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها.

أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها.

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسير لهم العمل، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقـــنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة عـــلينا وثبت الأقـــدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فـــتنة أبينا

وأقام الجيش فى الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة.

أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال، وأما غطفان فنزلت جهة أحد وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التى لم تكن العرب تعرفها فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل.

ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة بن أبى جهل وعمرو بن ود وآخرون، وقد برز على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لعمرو بن ود فقتله وهرب إخوانه وهوى فى الخندق نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه. ورمى سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم قطع أكحله وهو

شريان الذراع واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد، وجعل عليه السلام على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدة البرد، وكان عليه السلام يبشر أصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخير.

أما المنافقون فقد أظهروا فى هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ (١) وانسحبوا قائلين إن بيوتنا عورة نخاف أن يغير عليها العدو ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ (٢).

واشتدت الحال بالمسلمين فإن هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة، والذى زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود، وسبب ذلك أن حيى بن أخطب سيد بنى النضير المجلين توجه إلى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان اكفر فحسن له نقض العهد ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين.

ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله ﷺ أرسل مسلمة بن أسلم فى مائتين وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذرارى وأرسل الزبير بن العوام يستجلى له الخبر فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسول بذلك.

وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون وتكلم المنافقون بما بدا لهم.

فأراد عليه السلام أن يرسل لعيينة بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فأبى الأنصار ذلك قائلين إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٣ .

ثمرنا ونحن كفار أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها ؟! وإذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون.

الحرب خدعة

فانظر إلى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم جاء نعيم بن مسعود الأشجعى وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان فقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى فمرنى بأمرك حتى أساعدك. فقال أنت رجل واحد ماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج من عنده وتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم فقال: يا بنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى، قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم. وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى أن لا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك.

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال: أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) فرضى بذلك منهم. وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً.

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا أنا لا يمكننا أن نقاتل فى السبت (وكان إرساله لهم ليلة سبت) ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدى فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم.

فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً.

وكان عليه السلام قد ابتهل إلى الله الذى لا ملجأ إلا اليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم).

وقد أجاب الله دعاءه عليه السلام فأرسل على الأعداء ريحاً باردة فى ليلة مظلمة فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة. فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح.

ولما سمع عليه السلام الضوضاء فى جيش العدو، وقال لأصحابه: لا بد من حادث، فمن منكم ينظر لنا خبر القوم، فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً. وكان فيهم حذيفة بن اليمان، فقال عليه السلام: تسمع صوتى منذ الليلة ولا تجيب! فقال: يا رسول الله البرد شديد، فقال: اذهب فى حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم، فخاطر رضى الله عنه بنفسه فى خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر، وأن الأعداء عازمون على الرحلة.

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم: ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، فقال له صفوان بن أمية: إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يداهموا من ورائهم وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى تحزب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلاً لساءت الحال.

وكان جلاء الأحزاب فى ذى القعدة وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله فى سورة الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا

﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾[1].

غزوة بنى قريظة

ولما رجع عليه السلام بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببنى قريظة حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم فى شدة فقال لأصحابه: « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فـى بنى قريظة » فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكباً على حماره ولواءه بيد على بن أبى طالب وخليفته على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف.

وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر فى الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ولم يصلها الآخرون إلا فى بنى قريظة بعد مضى وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يعنف فريقاً منهم.

ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب فى قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة وهى الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ولكن أنى لهم ذلك وقت ثبت للمسلمين غدرهم.

فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول ﷺ فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضاً بل قال: لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً، فقالوا له: أرسل لنا أبا لبابة نستشيره وكان أوسياً من حلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال، فلما توجه إليهم استشاروه فى النزول على حكم الرسول. فقال لهم: انزلوا وأومأ بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح.

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٩ إلى ١٣ .

يقول أبو لبابة: لم أبارح موقفى حتى علمت انى خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى يقضى الله فيه أمره.

ولما سأل عنه عليه السلام أخبر بما فعل، فقال: أما لو جاءنى لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه.

ثم إن بنى قريظة لما لم يروا بداً من النزول على حكم رسول الله فعلوا، فأمر برجالهم فكتفوا فجاءة رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا نعم. واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذى كان جريحاً من السهم الذى أصيب به فى الخندق، وكان مقيماً بخيمة فى المسجد معدة لمعاملة الجرحى فأرسل عليه السلام من يأتى به، فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن فى مواليك ألا ترى ما فعل ابن أُبى فى مواليه ؟ فقال رضى الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم.

ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس، قال عليه السلام: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، ففعلوا وقالوا له: إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. وقال له الرسول: احكم فيهم يا سعد فالتفت سعد للناحية التى ليس فيها رسول الله وقال: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ فقالوا: نعم فالتفت إلى الجهة التى فيها الرسول وقال: وعلى من هنا كذلك؟ وهو غاض طرفه إجلالاً فقالوا: نعم، قال: فإنى أحكم أن تقتلوا الرجال وتسبوا النساء والذرية، فقال عليه السلام: (لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد) لأن هذا جزاء الخائن الغادر.

ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم وجمعت غنائمهم، فكانت ألفاً وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفى رمح، وخمسمائة ترس وجحفة ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وأجمالاً ونواضح وشياهاً فخمس ذلك كله مع النخل والسبى للراجل ثلث الفارس، وأعطى النساء اللاتى يمرضن الجرحى ووجد فى الغنيمة جرار خمر فأريقت.

وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضى الله عنه وأرضاه، وكان فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين. وقد كان له العزم الثابت فى جميع المشاهد التى تقدمت الخندق، وكان عليه السلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله.

وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبى لبابة بقوله: ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[١] وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التى حصلت فيها الزلة.

وبتمام هذه الغزوة أراح المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب. وسيأتى للقارىء قريباً اليوم الذى يعقابون فيه.

زواج زينب بنت جحش

وفى هذا العام تزوج عليه السلام زينب بنت جحش، وأمها أمية عمته بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ﷺ خطبها لزيد فتأفف أهلها من ذلك لمكانها فى الشرف العظيم، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف، فلما نزل قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ [2] لم يروا بدأ من القبول.

فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك. ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢.   (٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى، ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب له فى زواجه بزوج ابنه، فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله فى سورة الأحزاب ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**﴾[1].

ثم إن الله حرم التبنى على المسلمين لما فيه من الأضرار وأنزل فيه فى سورة الأحزاب ﴿ **مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [2].

ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد وأبدل بذلك أن ذكر اسمه فى قرآن يتلى على مر الدهور والأعوام.

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممن ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه، فقال: سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك... إلخ.

وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وأسلمت قديماً ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهى بنت عمته إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ورسول الله هو الذى زوجها زيداً فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك.

ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله فى سورة الحجر بمكة ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ**﴾ [3] وفى سورة طه المكية أيضاً ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا**

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٣ . (٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .
(٣) سورة الحجر الآية ٨٨ .

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [1] ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهى زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا.

ولو حدث أمر مماثل من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً وأبعدهم عن الدنايا وأشدهم ذكاء وفراسة، حتى مدحه الله بقوله فى سورة (ن): ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾.

لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل، فلم تبق شبهه فى أن الحقيقة ما نقلناه لك أولا، وهو الذى يستفاد من القرآن الشريف، قال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** ﴾ [2].

والذى أبداه الله هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد.

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله ﷺ وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيراً ويود أن ينزل فيه قرآن وكان يقول لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل فى سورة الأحزاب ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾ [3] فقال بعضهم: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوجن عائشة فنزل بعد الآية المقدمة ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾ [4].

---

(١) سورة طه الآية ١٣١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

أما غير أزواجه عليه السلام من المؤمنات فأمرن بغض الأبصار وحفظ الفروج كما أمر بذلك الرجال وأمرن أن لا يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتم فى الأصبع والخضاب فى اليد والكحل فى العين، أما ما خفى منها فلا يحل إبداؤه كالسوار للذراع، والدملج للعضد، والخلخال للرجل، والقلادة للعنق، والإكليل للرأس، والوشاح للصدر، والقرط للأذن.

والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعها وأمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهن على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفة فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال. وإذا كان النهى عن إظهار صوت الحلى بعدما نهينا عن إظهار الحلى، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ.

قال تعالى فى سورة النور ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

وكان النساء فى أول الإسلام كما كن فى الجاهلية متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجت بالليل إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطى الوجه والأعطاف ليتحشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع، قال تعالى فى سورة الأحزاب ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا**

(١) سورة النور الآية ٣١ .

رَحيماً﴾ (١).

أما حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل فى عهد الرسول ﷺ ولا عهد السلف الصالح، فإن الشارع الحكيم سن ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين فى أمر أجمع عليه أئمة الدين.

قال حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء: (وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما أى يؤلف بينهما من وقوع الأدمة على الأدمة) وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة، وإنما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف.

وقال عليه السلام (إن فى أعين الأنصار شيئاً فاذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن) قيل كان فى أعينهن عمش وقيل صغر.

وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرر وقال الأعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم، ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التى تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حسنا عند عامة المسلمين فى العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودرءاً للفتنة.

فرض الحج

وفى هذا العام ـ على ما عليه الأكثرون ـ فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى.

السنة السادسة ـ (سرية محمد بن مسلمة إلى ضرية)

ولعشر خلون من محرم فى السنة السادسة أرسل عليه السلام محمد بن

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .

مسلمة فى ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضرية [1] فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين إلى المدينة وقد التقوا وهم عائدون بثمامة بن أثال الحنفى من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق فإنه أطلق أساره بعد ثلاث أبى فيها الانقياد للإسلام بعد أن عرض عليه، ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد فرجع إلى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله (يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك فقد أصبح أحب الدين كله إلى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلى) فسر عليه السلام كثيراً بإسلامه لأن من ورائه قوماً يطيعونه.

ولما رجع ثمامة إلى بلاده مر بمكة معتمراً وأظهر فيها إسلامه فأرادت قريش إيذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التى منها ثمامة فتركوه، ومع ذلك فقد حلف هو أن لا يرسل إليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا فجهدوا جداً ولم يروا بداً من الاستغاثة برسول الله فعاملهم عليه السلام بما جبل عليه من الشفقة والرحمة وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل.

وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة فى الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد أكثر أهل بلاده فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة ويقول لهم إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه فثبت معه كثير من قومه رضى الله عنه.

غزوة بنى لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة، فأمر أصحابه

---

(١) موضع على سبع ليال من المدينة إلى طريق البصرة .

بالتجهيز ولم يظهر لهم مقصده كما هى عادته عليه السلام فى غالب الغزوات لتعمى الأخبار عن الأعداء، وولى على المدينة ابن أم مكتوم وسار فى مائتى راكب معهم عشرون فرساً ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا فى الجبال فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عسفان [1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب فذهبوا إلى كراع الغميم [2] ثم رجع عليه السلام إلى المدينة وهو يقول (آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال).

غزوة الغابة

كان للنبى عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة [3] فأغار عليها عيينة ابن حصن فى أربعين راكباً واستلبها من راعيها فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام والذى بلغه هو سلمة بن الأكوع أحد رماة الأنصار، وكان عداء فأمره الرسول بأن يخرج فى أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون فخرج يشتد فى أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل فإذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً فلا يلحق، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والأبراد ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش، فإن الرسول دعا أصحابه فأجابوه، وأول من انتهى إليه المقداد بن الأسود فقال له: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان، واستنقذ المسلمون غالب اللقاح، وهرب أوائل القوم بالبقية، وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة فى أثر القوم ليأخذهم على عرة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه السلام: (ملكت فأسجح) [4] ثم رجع بعد خمس ليال.

(١) موضع قرب مكة .
(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال .
(٣) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان .
(٤) أسجع : سهل ورفق يقال « ملكت فاسجح » أى أحسن العفو وتكرم ، وإذا سألت فأسجح : سهل ألفاظك وارفق .

سرية عكاشة بن محصن إلى بنى أسد

كان بنو أسد الذين مر ذكرهم كثيراً ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن فى أربعين راكباً ليغير عليهم، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا وهناك وجدوا رجلاً نائماً فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً.

سرية محمد بن مسلمة إلى من بذى القصة

وفى ربيع الأول بلغه عليه السلام أن من بذى القصة [١] يريدون الإغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء [٢] فأرسل لهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلاً وقد كمن المشركون حينما علموا بهم فنام المسلمون ولم يشعروا إلا بالنبل قد خالطهم فتوثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قُتل فعاد إلى المدينة وأخبر الرسول عليه السلام، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ربيع الآخر ليقتص من الأعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهم ورجع.

سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم فى الجموم

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين فى غزوة الخندق المسلمين فى سيرهم فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى ربيع الآخر ليغير عليهم فى الجموم[٣] فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بنى سليم فأصابوا بها نعماً وشاء ووجدوا رجالاً أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك إلى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها.

سرية زيد بن حارثة إلى عير قريش القادمة من الشام إلى مكة

بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليعترضها فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال

(١) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة عن طريق الربذة .
(٢) موضع قرب المدينة . (٣) ناحية من بطن نخل .

وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة فاستجار بزوجه زينب ونادت بذلك فى مجمع قريش فقال عليه السلام (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت).

وهذا أبلغ ما قيل فى المساواة بين أفراد المسلمين ورد عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً، فذهب إلى مكة فأدى لكل ذى حق حقه ورجع إلى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه.

سرية زيد بن حارثة إلى الطرف للإغارة على بنى ثعلبة

وفى جمادى الآخرة أرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى خمسة عشر رجلاً للإغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف [١]، فتوجهت السرية لذلك ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليال.

سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى للإغارة على بنى فزارة

وفى رجب أرسل عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بنى فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين فى وادى القرى [٢] فساروا حتى دهموا العدو بهم وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة، فاستوهبها عليه السلام ممن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة.

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل لغزو بنى كلب

وفى شعبان أرسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بنى كلب فى دومة الجندل [٣] وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة فى طريق العراق.
(٢) موضع شمالى المدينة.
(٣) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة بسير الإبل.

بقوله (اغزوا جميعاً فى سبيل الله فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) .

ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصرانى وأسلم معه جمع من قومه وبقى آخرون راضين بإعطاء الجزية، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه السلام، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء بحيث يهم كلاً ما يهم الآخر فنعما هى سياسة السلم والمحبة .

سرية على بن أبى طالب إلى فدك لغزو بنى سعد بن بكر

وفى شعبان أرسل عليه السلام على بن أبى طالب فى مائة لغزو بنى سعد ابن بكر بفدك [1] لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر فسارت السرية .

وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة فحذورا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة ورد الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود بشىء .

قتل أبى رافع

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين سيدهم أبو رافع سلام بن أبى الحقيق المُلقب بتاجر أهل الحجاز لما كان له من المهارة فى التجارة وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد، فانتدب له عليه السلام من يقتله فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشراف، فإن من نعم الله على رسوله

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر .

أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله فلا تعمل الأوس عملاً إلا اجتهد الخزرج فى مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة.

فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبد الله لأصحابه مكانكم فإنى منطلق للبواب ومتلطف له لعلى أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوب كأنه يقضى حاجته وقد دخل الناس فهتف به البواب ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول فإنى أريد أن أغلق الباب فدخل، وكمن حتى نام البواب، فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ثم توجه إلى بيت أبى رافع وصار يفتح الأبواب التى توصل إليه وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى يا أبا رافع قال من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن أبى عتيك ، فقال لها: ثكلتك أمك وأين ابن أبى عتيك الآن ؟ فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته قائلاً: ما هذا الصوت الذى نسمعه يا أبا رافع ؟ قال لأمك الويل إن رجلاً فى البيت ضربنى بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقياً على ظهره فوضع السيف فى بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثم انطلق إلى أصحابه وقال النجاة قتل والله أبو رافع فانتهوا إلى الرسول فحدثوه ثم قال لعبد الله أبسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها قط، وعادت أحسن ما كانت.

فانظر رعاك الله الى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت فى إرضاء رسول الله ﷺ فرضى عنهم وأرضاهم.

سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر

ولما قتل كعب ولى مكانه أسير بن رزام فأرسل عليه السلام من يستعلم له خبره فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلى، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه وسعى فى ذلك.

فأرسل عليه السلام عبد الله بن رواحة الخزرجى فى ثلاثين من الأنصار لاستمالته فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له، قال: نعم ولى مثل ذلك فأجابوه ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله وترك ما عزم عليه من حرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب إلى ذلك وخرج فى ثلاثين يهودياً كل يهودى رديف لمسلم وبينما هم فى الطرق ندم أسير على مجيئه وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن آمنوه فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن رواحة فقال له: أغدراً يا عدو الله ! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ولم يلبث أن هلك فقام المسلمون على من معهم من اليهود فقتلوهم عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر.

قصة عكل وعرينة

قدم على رسول الله فى شوال جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم، فلم يوافقهم هواء المدينة فأمر لهم عليه السلام بذود من الإبل معها راع وأمرهم باللحوق بها فى مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا، ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً فقتلوا الراعى ومثلوا به واستاقوا الإبل.

فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر الفهرى فى عشرين فارساً فلحقوا بهم وقبضوا على جميعهم، ولما جاءوا إلى المدينة أمر عليه السلام أن يمثل بهم كما مثلوا بالراعى فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا بالحرة حتى ماتوا فهكذا يكون جزاء الخائن الذى لا ينتظر منه صلاح وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة، وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المثلة.

سرية عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة لقتل أبى سفيان

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً فى نادى فقال: ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً فإنه يمشى بالأسواق لنستريح منه ؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد

فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك، فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه وهو بمسجد بنى عبد الأشهل فلما رآه عليه السلام قال: إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله ما نعى منه، فذهب لينحنى على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من إزاره وهنالك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلى عليه السلام سبيله فقال الرجل: والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت نفسى، ثم إنك اطلعت على ما هممت بما لم يعلمه أحد فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان ثم أسلم.

وعند ذلك أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلاً جريئاً فاتكاً فى الجاهلية وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له فعرف عمراً أحد رجال مكة فقال: هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشر، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا إلى المدينة. وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيفى القويم.

غزوة الحديبية

رأى عليه السلام فى نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رءوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذراً من أن تردهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه لأنهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا.

فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدتهم ألفاً وخمسمائة وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وأخرج معه زوجه أم سلمة وأخرج الهدى ليعلم الناس أنه لم يأت محارباً ولم يكن مع أصحابه شىء من السلاح إلا

السيوف فى القرب، لأن الرسول لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ثم سار الجيش حتى وصل عسفان [١] فجاءه عينه يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة وأن لا يدخلوها عليهم عنوة أبداً وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم.

فقال عليه السلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم؟ فقال رجل أسلم: أنا يا رسول الله، فسار بهم فى طريق وعرة ثم خرج بهم إلى مستو سهل يملك مكة من أسفلها.

فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر.

ولما كان عليه السلام بثنية المرار [٢] بركت ناقته فزجروها فلم تقم فقالوا: خلأت [٣] القصواء فقال عليه السلام: ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله إلا أجبتهم إليها، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم فى مثل هذا الوقت لظفروا بهم، ولكن كف الله أيدى المسلمين عن قريش وكف أيدى قريش عن المسلمين، كيلا تنتهك حرامات البيت الذى أراد الله أن يكون حرماً آمناً يوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه، ثم أمرهم عليه السلام بالنزول أقصى الحديبية [٤].

وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى رسولاً من قريش يسأل عن سبب مجىء المسلمين فأخبره عليه السلام بمقصده فلما رجع بديل إلى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف.

ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش وهم حلفاء قريش، فلما رآه

(١) موضع على مرحلتين من مكة. (٢) مهبط الحديبية .
(٣) خلأت الناقة خلئا وخلاء ، وخلوءا : حرنت وامتنعت ، فهى خالىء وخلوء .
(٤) بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها .

عليه السلام قال: هذا من قوم يعظمون الهدى ابعثوه فى وجهه حتى يراه، ففعلوا واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال: سبحان الله ما ينبغى من لهؤلاء أن يصدوا أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب هلكت قريش ورب البيت إن القوم أتوا معتمرين.

فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له: اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله وقال: يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك.

فنال منه أبو بكر وقال: نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه، فقال: والله يا معشر قريش جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه.

ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح، مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه.

فقالت قريش: لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا ويرجع إلى قابل.

ثم إن الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول فى زيارة أقاربهم، وأمر عليه السلام عثمان أن يأتى المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه، فدخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد الأموى فبلغ ما حمل فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً.

ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع ثم إنهم

حبسوه فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما سمع ذلك: لا نبرح حتى نناجزهم الحرب.

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك [1] (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً وقتل من المسلمين واحد.

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح فلما جاء قال: يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا بل شىء قام به السفهاء منا، فابعث إلينا بمن أسرت، فقال حتى ترسلوا من عندكم.

وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ثم عرض سهيل الشروط التى تريدها قريش وهى:

(١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.

(٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده.

(٣) أن يرجع النبى من غير عمرة هذا العام ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس.

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه فقبل عليه السلام كل هذه الشروط.

(١) وقد أمر عمر فى خلافته بقطعها خوفا أن يتخذها الناس ذريعة للتبرك بها فتعبد من دون الله .

أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا: سبحان الله ! كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً ؟ فقال عليه السلام « إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

أما الأمر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً فى قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أن رأى فى منامة أنهم دخلوا البيت آمنين.

وقد سأل عمر أبا بكر فى ذلك فقال رضى الله عنه: وهل ذكر أنه فى هذا العام؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب على بن أبى طالب فأملاه عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم فأمره الرسول بذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع، فمحاها النبى بيده وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين.

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل فى قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال عليه السلام: اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً مخرجاً إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم .

هذا وقد دخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله، ودخل بنو بكر فى عهد قريش.

ولما انتهى الأمر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رءوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هماً عظيماً حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال فدخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها: هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت: يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيماً فى الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون.

ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فإذا رأوك فعلت تبعوك.

فتقدم عليه السلام إلى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه فلما رآه المسلمون توثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا، ثم رجع المسلمون إلى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر.

ولما قر قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط أخت عثمان لأمه فطلبها المشركون فقالت: يا رسول إنى امرأة وإن رجعت إليهم فتنونى فى دينى، فأنزل الله فى سورة الممتحنة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [(١)].

فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ومتى حلفت لا ترد بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها.

وفى الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل ترد إلى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها.

وقد تمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفى رضى الله عنه من الفرار إلى رسول الله فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه فأمره عليه السلام بالرجوع معهما فقال: يا رسول الله أتردنى إلى الكفار يفتنوننى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال: إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً، فلم يجد بداً من اتباعه فرجع مع صاحبيه ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع إلى المدينة وقال: يا رسول وفت ذمتك أما أنا فنجوت.

فقال له: اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة.

(١) سورة الممتحنة الآية ١٠ .

فذهب إلى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا، وسار إليه أبو جندل بن سهيل واجتمع إليه جمع من الأعراب وقطعوا عنهم الأمداد، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به فى إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق فى إمساك من جاءه مسلماً فقبل منهم ذلك وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى لم يتمكنوا من تحملها فى الحديبية حينما أمرهم عليه السلام برد أبى جندل وعلموا أن رأى رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضى الله عنه ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وفى رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه فى أولها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

وفى تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصديق.

*****

الفصل الثالث

الرسائل والفتوح

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش كاتب عليه السلام ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله الى الملك.

كتاب قيصر

وكان فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى: أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [2].

حديث أبى سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوة لمقابلة الملك فأجاب.

ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانة: سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبو سفيان: أنا لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره.

---

(١) الفلاحين .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

فقال قيصر: ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا وراء ظهره ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله: كيف نسب هذا الرجل فيكم قال: هو فينا ذو نسب.

قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال: لا.

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال: بل ضعفاؤهم.

قال: فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال: بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال: لا.

قال: هل يغدر إذا عاهد ؟ قال: لا. نحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها [1].

قال: فهل قاتلتموه ؟ قال: نعم.

قال: فكيف حربكم وحربه ؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا.

قال: فيم يأمركم ؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال الملك: إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا

(١) يقول أبو سفيان لم أجد ما ألمز به الرسول ﷺ إلا هذه الكلمة.

فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت لا: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم يكون لهم العافية.

وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

فعلمت أنه نبى وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك.

قال أبو سفيان: فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ! ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكره له ثم أمر بأبوابها فأغلقت.

ثم قال: يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم على فقال لهم: إنى قلت مقالتى أختبر بها

شدتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ولكنه رد دحية رداً جميلاً.

كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى إلى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة وهى قرية من عمل البلقاء بالشام تعرض له شرحبيل بن عمر الغسانى فقال له: أين تريد قال: الشام قال: لعلك من رسل محمد قال: نعم، فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وجد لذلك وجداً شديداً.

كتاب الحارث بن أبى شمر

ووجه عليه السلام شُجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل: الحارث ابن أبى شمر وكان يقيم بغوطتها وفيه.

(بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به، وقال: من ينزع ملكى منى واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى ذلك، وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيىء بإيليا ما يلزم لزيارته فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى، ووصله بنفقة وكسوة.

بســـم الله الرحمن الرحيم

كتاب المقوقس

ووجه عليه السلام حاطب بن أبى بَلْتَعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة. . الآية) .

فأوصله له حاطب بإسكندرية، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه ؟.

قال: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة إخراج الغائب المستور والأخبار بالنجوى وسأنظر.

ثم كتب رد الجواب يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام).

وإحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس.

كتاب النجاشي

ووجه عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى بكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة وفيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلام عليك.

أما بعد: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى)

ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو إنى أعلم والله أن عيسى بشر ولكن أعوانى بالحبشة قليل فأنظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

وقد عرض عمرو على من بقى من مهاجرى الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذى كان أسلم وهاجر بها ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه السلام أم حبيبة وهى بالحبشة والذى زوجها له النجاشى بتوكيل منه عليه السلام.

كتاب كسرى

ووجه عليه السلام عبد الله بن حذافة الشهمى بكتاب إلى كسرى ملك الفرس وفيه.

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) .   فلما وصله الكتاب مزقة استكباراً .

ولما بلغة عليه السلام ذلك قال: (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتى به إليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتل له ثم أرسل لعامله باليمن ينهاه عما أمره به أبوه.

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمى بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم سلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو.

أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية).

فأسلم وكتب فى رد الجواب (أما بعد يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك) .

فكتب إليه عليه السلام: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسته فعليه الجزية) .

كتاب ملكى عُمان

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص [1] بكتاب إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عُمان وفيه.

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فأنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما) .

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجلندى عما يأمر به الرسول وينهى عنه فقال: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن محمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً .

قال عمرو إن أسلم أخوك ملكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم.

فقال عبد: إن هذا الخلق حسن.

وما الصدقة فأخبره بما فرض الله من الصدقات فى الأموال ولما ذكر المواشى قال: يا عمرو يوخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه ؟ قال: نعم، فقال عبد: والله ما أرى قومى على بُعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا.

ثم إن عبداً أوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخره ومكناه من الصدقات.

كتاب هوذة بن على

ووجه عليه السلام بن عمرو العامرى بكتاب إلى هوذة بن على ملك اليمامة

(١) سيرد فيما يلى أن عمرو أسلم فى السنة السابعة ويبدو أن هنالك اختلافاً فى التاريخ .

وفيه.

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن على. سلام على من اتبع الهدى واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، واجعل لك ما تحت يديك).

فلما جاء الكتاب كتب فى رده (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك) .

ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت باد وباد ما فى يديه، فلم يلبث أن مات منصرف الرسول ﷺ من فتح مكة، وكان عليه السلام يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم.

السنة السابعة - (غزوة خيبر)

وفى محرم السنة السابعة أمر عليه السلام بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا مهيج للأحزاب ضد رسول الله فى غزوة الخندق، والذين لا يزالوا مجتهدين فى محالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدمنا ذلك فى قصة كعب بن الأشرف، وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم فقال عليه السلام لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً وأمر منادياً ينادى بذلك.

ثم خرج عليه السلام بعد أن ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى وكان معه من أزواجه أم سلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التى تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربى رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فقال عليه السلام: (ارفقوا بأنفسكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم) .

وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلاً بعضها عن بعض وهى حصون النطاة وحصون الكتيبة وحصون الشق.

والأولى ثلاثة حصن ناعم وحصن الصعب وحصن قلة.

والثانية حصنان حصن أبى وحصن البرئ.

والثلث ثلاث حصون: حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلالم.

فبدأ عليه السلام بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل وأمر عليه السلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة.

ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع فى ذلك اليوم شيئا وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين.

حتى إذا كانوا فى الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودى خارج فى جوف الليل فأتى به رسول الله عليه السلام ولما أدرك الرجل الرعب قال: أن أمنتمونى أدلكم على أمر فيه نجاحكم. فقالوا: دلنا فقد أمناك.

فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غداً فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً فانى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات [1] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون فإنكم تنصبون ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك.

فقال عليه السلام لمحمد بن مسلمة: سزعطى الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه.

فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ.

فلما كان الغد سأل عليه السلام عن على بن أبى طالب فقيل له أنه أرمد فأرسل من يأتيه به ولما جاء تفل فى عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شئ ثم

(١) الدبابة آله تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبها الجنود وهم فى جوفها .

اعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال وهناك وجدوا اليهود متجهزين فخرج يهودى يطلب البراز فقتله على ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام.

ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذى يليه وهو حصن الصعب.

وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه السلام منادياً يقول : كلوا واعلفوا بدوابكم ولا تأخذوا شيئاً [1] .

ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن قلة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه، وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على جداول الماء التى يستقى منها فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشق.

فتبعهم المسلمون وبدأوا بحصن أُبى فخرج أهله وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصارى بلاء حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً ، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البرئ فتمنعوا به أشد التمنع.

وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع فى قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد.

فوجد فيه المسلمون أوانى لليهود من نحاس وفخار فقال عليه السلام : اغسلوها واطبخوا فيها.

ثم تبع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكتيبة وبدأوا بحصن القموص

(١) لان ذلك من الغلول ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ .

فحاصره عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد على بن أبى طالب ومنه سبيت صفية بنت حيى بن أخطب.

ثم سار المسلمون لحصار حصنى الوطيح والسلالم فلم يقاوم أهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره فأجابهم رسول الله إلى ذلك.

وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربية ووجدوا صحفاً من التوراة فسلموها لطالبيها.

وقد أمر عليه السلام بقتل كنانة بن أبى الحقيق لأنه أنكر حلى حيى بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقراطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك.

هذا والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلاً وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

وفى هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث أعلم أنها مسمومة وأكل بشر بن البراء فمات لوقته، واحتجم رسول الله ﷺ وجئ له بالمرأة التى فعلت هذه الفعله فسألها عن سبب ذلك فأجابت: قلت إن كان نبياً لن يضره وإن كان كاذباً أراحنا الله منه، فعفا عنها عليه السلام.

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه السلام صفية بنت حيى سيد بنى النضير وأصدقها عتقها، وقد أسلمت رضى الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين.

النهى عن نكاح المتعة

ونهى عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة، وهو النكاح لأجل وقد كان حلالا فى الجاهلية واستعمل فى بدء الإسلام حتى حرمه الشرع فى هذه السنة ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها.

رجوع مهاجرى الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه بعد أن أقاموا فيها نحو من عشر سنين امنين مطمئنين، وفرح عليه السلام بمقدمهم فرحاً عظيماً رأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً .

وكان من جعفر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين وقدم فى هذا الوقت على النبى عليه السلام الدوسيون إخوان أبى هريرة رضى الله عنه وهو معهم فأعطاهم أيضاً رسول الله ﷺ .

فتح فدك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه السلام من يطلب من يهود فدك [1] الانقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال. وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بنى هاشم ويزوج منا أيمهم.

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء [2] ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا فى بلادهم امنين مطمئنين.

فتح وادى القرى

ثم دعا عليه السلام يهود وادى القرى إلى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها عليه السلام وترك الأرض فى أيدى أهلها يزرعونها بشرط ما يخرجون منها.

كذلك صنع بأرض خيبر وكان يرسل إليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر

---

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة .

(٢) قرية على ثمان مراحل من المدينة .

وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه فقال له : يا أعداء الله تعطونى السحت! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل.

هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق، ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين.

إسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى فى قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم خالد بن الوليد المخزومى، وعمرو ابن العاص السهمى، وعثمان بن أبى طلحة البعدرى [1] فسر بهم عليه السلام سروراً عظيماً وقال لخالد: (الحمد لله الذى هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير): فقال يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك، فقال عليه السلام: (الإسلام يقطع ما قبله).

سرية عمر بن الخطاب إلى هوازن بتربة

وفى شعبان بلغه عليه السلام أن جمعاً من هوازن بتربة [2] يظهرون العداوة للمسلمين فأرسل لهم عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلاً فسار إليهم ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً فرجع.

سرية بشير بن سعد لقتال بنى مرة

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصارى لقتال بنى مرة بناحية فدك فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحداً فأخذ نعمهم. أما القوم فكانوا فى الوادى فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل. ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحاً شديداً حتى ظن

(١) نسبة إلى قبيلة عبد الدار .

(٢) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها .

أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر .

سرية غالب بن عبيد الله الليثى إلى أهل الميفعة

فى رمضان أرسل عليه السلام غالب بن عبيد الله الليثى إلى أهل الميفعة فى مائة وثلايين رجلاً فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا اخرين وفى أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين، ولما رأى المشرك الموت فى يد أسامة تشهد فظن أن عدوه إنما قال ذلك تخلصاً فقتله.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة وأخبر عليه السلام بفعلة أسامة قال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله فكيف تصنع بلا إله إلا الله. قال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل قال عليه السلام: فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟! فقال يا رسول الله: استغفر لى. قال عليه السلام: فكيف بلا إله إلا الله!! فما زال يكررها حتى تمنى أسامه أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم.

وأنزل الله فى ذلك فى سورة النساء ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ (١) .

ثم أمر عليه السلام أسامه أن يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ.

سرية بشير بن سعد إلى يمن وجبار لقتال عيينة بن حصن ومن معه

وفى شوال بلغه عليه السلام أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يمن وجبار للإغارة على المدينة فأرسل لهم بشير بن سعد فى ثلاثمائة رجل فساروا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعماً كثيرة وتفرق الرعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليا بلادهم ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة.

عمرة القضاء

لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بمن صد معه فيها

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .

ليقضى عمرته واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى وساق معه الهدى ستين بدنه وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد وأحرم عليه السلام من باب المسجد المدنى ولما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامة فقيل يا رسول الله: حملت السلاح وقد اشترطوا أن لا تحمله ؟ فقال عليه السلام لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منها فإن هاجنا هائج فزعنا له.

فلما كان بمر الظهران قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم فجاء فتيان منهم وقالوا: والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً وإنا لم نحدث حدثاً !! نقال: ـ إنا لا ندخل الحرم بالسلاح.

ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت، فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وأمامه عبد الله بن رواحة يقول: لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب، فقال عليه السلام: رحم الله امرءا أراهم من نفسه قوة، واضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة وفعل مثله المسلمون، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام فى منامه.

زواج ميمونة

وتزوج ﷺ هو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله بن العباس وهى آخر نسائه زواجاً لم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بسرف [1] ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا، ثم رجع عليه السلام إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه.

(١) موضع قرب التنعيم .

وفى صفر أرسل عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد [1] فسار القوم حتى إذا كانوا بقديد التقوا بالحارث ابن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء وكان خصماً لدوداً فأسروه، فقال لهم: ما جئت إلا للإسلام، فقالوا له أن تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة وإلا استوثقنا منك.

ثم ساروا حتى وصلوا محلة بنى الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ولكن من الله على المسلمين فأرسل سيلاً شديداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها.

سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى مرة بفدك

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله عليه السلام فى مائتى رجل ليقتص من بنى مرة بفدك وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمراً فإنه لا رأى لمن لا يطاع) ثم آخى بين الجند فقال يا فلان أنت وفلان ويا فلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدرى، فإذا كبرت فكبروا، فلما أحاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة.

سرية كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح

وفى ربيع الأول أرسل عليه السلام كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام فى خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً فدعوهم إلى الإسلام

(١) موضع بين عسفان وقديد .

فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا أكثر عدداً فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير فإنه نجا وأتى بالخبر إلى رسول الله فشق عليه وأراد أن يبعث إليهم من يقص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك.

غزوة مؤتة

جهز عليه السلام فى جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدى رسوله إلى أمير بصرى وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم: إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به (اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء).

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة [١] مقتل الحارث بن عمير وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً منهم ومن العرب المتنصرة فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب؟؟.

فقال عبد الله بن رواحة: يا قوم والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم له ـ خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة ما نقاتل إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فأنما هى إحدى الحسنين إما الظهور وإما الشهادة.

فقال الناس: صدق والله ابن رواحة ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة رضى الله عنه حتى استشهد، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتـــرابها ... طيبة وبارد شـــــرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنســــابها

على إذ لاقيتها ضـــرابها

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام .

لم يزل يقتل حتى استشهد رضى الله عنه فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه.

أقسمت يا نفس لتنزلنه   طائعة أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدو الرنه   ما لى أراك تكرهين الجنة

قد طالما كنت مطمئنه   هل أنت إلا نطفة فى شنه ؟

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل رضى الله عنه حتى استشهد.

فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم: يقتل الإنسان مقبلاً خيراً من أن يقتل مدبراً فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد، وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً، فإنه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً، وفى غدة خالف العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة.

فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا. ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال.

وقد نعى النبى ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عينا رسول الله تذرفان، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم.

وجاءه رجل فقال : يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين، فأمره أن ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن فلم يطعن ! فأمره فذهب ثانياً ثم جاء فقال : والله غلبننا، فقال له عليه السلام : احث فى أفواههن التراب.

ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فُرار، فقال عليه

السلام بل هم الكرار ! ظن المقيمون بالمدينة إن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد فى مهارته.

سرية عمرو بن العاص إلى قضاعه فى وادى القرى

وفى جمادى الآخرة بلغه عليه السلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء القرى ليغيروا على المدينة فأرسل لهم عمرو بن العاص فى ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين، ثم أمده بأبى عبيدة بن الجراح فى مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر، فلحقوا عمراً قبل أن يصل إلى القوم.

وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو، فأنكر عمر بن الخطاب فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه فامتثل.

ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين.

وبينما هم فى الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة فلما أصبح قال : إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول : ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] ثم تيمم وصلى.

ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هى عادته فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنباً ،فسأله عليه السلام عن ذلك فقال : منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ونهيتم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين وصليت جنبا لأن الله يقول : ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2] وإن أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه السلام وأثنى على عمرو خيراً .

(١) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

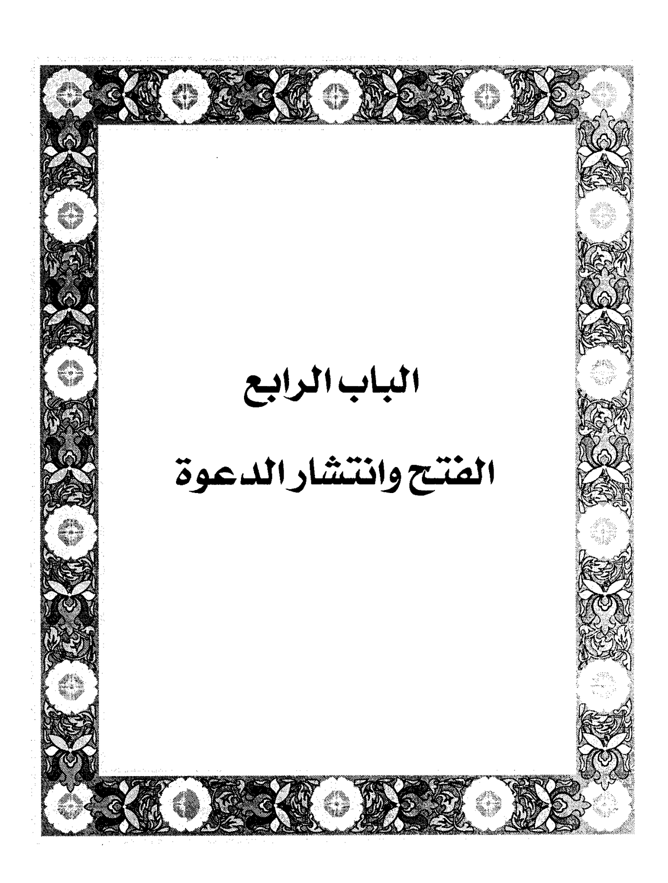
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

سرية أبى عبيدة عامر بن الجراح إلى ساحل البحر لغزو قبيلة جهينة

وفى رجب أرسل عليه السلام أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التى تسكن ساحل البحر وزود عليه السلام هذا الجيش جراباً من التمر فسروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو وقد فنى زادهم حتى أكلوا الخبط وهو ورق السمر يبلونه بالماء ويأكلون إلى أن تقرحت أشداقهم.

وكان فى القوم الكريم ابن الكريم قيس بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر فى كل يوم جزور، وفى اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه، فخاف أبو عبيدة أن لا يفى له أبوه بما استدان فقال قيس: أترى سعداً يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى ديناً استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله .

ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة فقال قيس بن سعد لأبيه كنت فى الجيش فجاعوا قال: انحر قال نحرت قال: ثم جاعوا قال: انحر. قال: نحرت، قال : ثم جاعوا، قال : انحر. قال نحرت قال : ثم جاعوا قال : انحر قال : نهيت.



الباب الرابع

الفتح وانتشار الدعوة



الفصل الأول
فتح مكة

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وأزال موانعه فقد كان عليه السلام يعلم أنه لا تُذَل العرب حتى تذل قريش ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوق لفتحها ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشاً فى الحديبية وهو سيد من وفَّى ولكن إذا أراد أمراً هيأ أسبابه.

فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلت فى عهد رسول الله وقبيلة بكر دخلت فى عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين.

ولم رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخُزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال: والله لأمنعنكم مما أمنع نفسى منه.

أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التى اتخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداوة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يا بنية: أرغبت به عنى أم رغبت بى عنه ؟ فقالت: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال لقد أصابك

بعدى شر.

ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد وعرض عليه ما جاء له، فقال له عليه السلام: هل كان من حدث؟ قال: لا، فقال عليه السلام: فنحن على مدتنا وصلحنا، ولم يزد عن ذلك.

فقام أبو سفيان ومشى إلى كبائر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معيناً وكلهم قالوا : جوارنا فى جوار رسول الله فرجع الى قومه ولم يصنع شيئاً فاتهموه بأنه خانهم واتبع الإسلام فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له: يا رسول الله أوليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم ولكن غدروا ونقضوا.

ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين حول المدينة وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لايريد أن يقيم حرباً بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها فدعا مولاه جل ذكره وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلدها).

فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدراً وكتب كتاباً لقريش يخبرهم بعض أمر رسول الله ﷺ وأرسله مع جاريه لتوصله إلى قريش على عجل فأعلم الله رسوله ذلك فأرسل فى أثرها عليا والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فأن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بهاالمرأة فقالوا لها: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب! فقالوا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتوا به رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: يا حاطب ما هذا ؟ قال: يا رسول الله لا تعجل إنى

كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام.

فقال عليه السلام : أما أنه قد صدقكم.

فقال عمر: دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً ، فقال اعلموا ما شئتم فقد غفر لكم.

وفى ذلك أنزل الله سوة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١).

ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة بن أم مكتوم، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر، وصهره عبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة شقيق زوجه أم سلمة وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢) .

ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً ، وقد قابل عليه السلام فى الطريق العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله فأمره أن يعود إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة. ولما وصل عليه السلام من الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار وكان قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١ .

(٢) سورة يوسف الآية ٩٢ .

ابن حزام وبديل بن ورقاء يلتسمون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا من الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفة ! فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو، فقال أبو سفيان: بنو عمرو أقل من ذلك.

فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبه كتيبه على أبى سفيان وهو يسأل عنها ويقول ما لى ولها، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد ابن عبادة فقال سعد: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار.

ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد، فقال عليه السلام: كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون (١) .

وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كُدى (٢) ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

وهذه أعظم منه له واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد ابن أبى سرح الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون فكان يقول: إن محمداً كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد ! ومنهم عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وهباد

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

(٢) كدى كقوى جبل الى مسفلة مكة على طريق اليمن . وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة .

ابن الأسود والحارث بن هشام، وزهير بن أبى أمية، وكعب بن زهير [1] ووحشى قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان وقليل غيرهم، ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل.

فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين وقُتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة.

وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الحل، وأسامة بن زيد رديفه وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل إلى الحجون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلً ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده يقول: جاء الحق وزهق الباطل، وما يبدئ الباطل وما يعيد، ثم أمر بها فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزلام فقال عليه السلام: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط !!

وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً. ويوشك أن نذكر للقارئ اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية.

العفو عند المقدرة:

ثم إن النبى ﷺ دخل الكعبة وكبر فى نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم وجلس فى المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظون ما هو فاعل بمشركى قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده

---

(١) صاحب قصيدة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم إثرها لم يفـــد مكبول

وقاتلوه ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التى يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس فقال عليه السلام: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه السلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ويرحم الله الإمام البوصيرى حيث قال:

وإذا كان القطع والوصل لله	تساوى التقريب والإقصاء
وسـواء عـليه فيما أتاه	من سـره الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهـوى النفـ	ـس لدامت قطيعة وجفاء
قام لله فى الأمور فأرضى الله	منـه تبايـن ووفـاء
فعله كلُّه جميل وهل ينضـ	ـح إلا بمـا حواه الإناء

ثم خطب عليه السلام خطبة أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية منها: أن لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم ولا صلاة بعد الصبح والعصر ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر .

ثم قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1] ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، وممن أسلم فى هذا اليوم معاوية بن أبى سفيان وأبو قحافة والد الصديق وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه .

وجاء رجل يرتعد خوفاً فقال له عليه السلام: (هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فمهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم.

فعبد الله بن سعد بن أبى سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان طلب منه أن يستأمن له رسول الله فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبى وقال: يا رسول الله قد أمنته فبايعه فأعرض عنه عليه السلام مراراً ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه السلام: أعرضت عنه ليقوم إليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا: هلا أشرت إلينا ؟ فقال: لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنه الأعين.

وأما عكرمة بن أبى جهل فهب فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد أسلمت قبل الفتح وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلحقته وقد أراد أن يركب البحر فقالت: جئتك من عد أبر الناس وخيرهم لا تهلك نفسك وإنى قد استأمنته لك فرجع ولما رآه عليه السلام وثب قائماً فرحاً به: مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً ثم أسلم رضى الله عنه وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له، وكان رضى الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام.

وأما هبار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة [1] جاءه مسلماً وقال: يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل. فقال عليه السلام: قد عفوت عنك.

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومى فأجارتهما أم هانئ بنت أبى طالب فأجاز عليه السلام جوارها.

ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال له: الحمد لله الذى هداك ما كان مثلك يجهل الإسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقى نفسه فى البحر فجاء

(١) موضع بين مكة والطائف.

ابن عمه عمير بن وهب الجمحى وقال: يا نبى الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه فإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فقال عليه السلام: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطنى علامة فأعطاه عمامته فأخذها عمير حتى إذا لقى صفوان قال له فداك أبى وأمى جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال صفوان: إنى أخاف على نفسى، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة علامة الأمان فرجع إلى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمنتنى ؟ قال: صدق، قال: أمهلنى بالخيار شهرين، قال: أربعة أشهر، ثم أسلم رضى الله عنه وحسن إسلامه.

وأما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت وجاءت إلى رسول الله فرحب بها وقالت له: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك.

وفود كعب بن زهير:

وأما كعب بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً جاء المدينة بعد أن قدمها رسول الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التى تقول فيها [1] .

وقال كل صـديق كنت آمـله ... لا ألهينك إنى عنك مشـغول

فقلت خلوا سـبيلى لا أبا لكـم ... فكل ما قدر الرحمن مفـعول

كل ابن أنثى وإن طالت سـلامته ... يوماً على آلة حدباء محـمول

أنبئت أن رسـول الله أوعـــدنى ... والعفـو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعـيظ وتفصيل

وقال فيها مادحاً :

إن الرســـول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله المسلول

(١) وهى قصيدة بانت سعاد التى ذكرنا بيتها الأول فى هامش ص ١٩٨ .

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته.

وأما وحشى قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام وقد جاءه ابنا أبى لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو فاستأمن له ابنه عبدالله فأمنه عليه السلام وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال: كان والله براً صغيراً براً كبيراً ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء وكن يبايعن على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول فى معروف.

ثم أمر عليه السلام بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم فلا عجب أن أتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم، وأقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة وولّى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقة كل يوم درهماً ، فكان عتاب رضى الله عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم.

هدم العزّى

وفى الخامس من مقامه عليه السلام بمكة أرسل خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهى أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه إليها خالد وهدمها.

هدم سواع

وأرسل عليه السلام عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب إليه وهدمه.

هدم مناة

وبعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارساً لهدم مناة وهى صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد فتوجهوا إليها وهدموها.

غزوة حُنَيْن

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان دانت للإسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً.

أما قبيلتنا هوازن وثقيف فأدركتهما حمية الجاهلية واجتمع الأشراف منهم للشورى وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا فأجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك بن عوف النصرى فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وكان فى القوم دريد بن الصمة المشهور بأصاله الرأى وشدة البأس فى الحرب ولتقذم سنه لم يكن له فى هذه الحرب إلا الرأى.

ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، فلما علم بذلك دريد سأل مالكاً عن السبب فقال: سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه، فقال دريد: وهل يرد المنهزم شيء إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك، فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الأبل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله ﷺ فانه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير إليهم وخرج معه اثنا عشر ألف غاز منهم ألفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم.

وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية وسهيل ابن

عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى، ثم ركب عليه السلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر. هذا، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغن عنهم (١) شيئاً فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فخرج لهم كمين كان مستتراً فى شعاب الوادى ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلووا أعنه خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم فى الهزيمة لما لحقهم من الدهشة.

أما رسول الله ﷺ فثبت على بغلته فى ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وعلىّ والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان ابن الحارث ومعتب بن أبى لهب، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة وأبو سفيان آخذاً بالركاب، وكان عليه السلام ينادى: إلى أيها الناس ولا يلوى عليه أحد وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت.

أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الإدبار.

فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر.

وقال أخ لصفوان بن أمية: الآن بطل السحر، فقال له صفوان وهو على شركه: أسكت فض الله فاك ! والله لأن يربنى رجل من قريش خير من أن يربنى رجل من هوزان.

ومر عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً فغضب صفوان وقال: ويلك أتبشرنى بظهور الأعراب ؟.

وقال عكرمة بن أبى جهل لذاك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شىء إن أديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً ، فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا

---

(١) حتى أن بعضهم قال : لن تغلب اليوم عن قلة .

على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع. وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول:

أنا النبــي لا كذبْ   أنا ابن عبد المطــلب

ثم قال للعباس وكان جهورى الصوت: ناد بالأنصار يا عباس، فنادى يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع من فى الوادى وصار الأنصار يقولون: لبيك لبيك ويريد كل واحد منهم أن يلوى عنان بعيرة فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت.

حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها فكر المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فل المشركين وتفرقوا فى كل وجه لا يلوون على شئ من الأموال والنساء والذرارى وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذرارى وأسروا كثيراً من المحاربين، وهرب من هرب،وجرح فى هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم ناس كثيرون من مشركى مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

هذا والذى حصل فى هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركى وأعراب وحديثى عهد بالإسلام هؤلاء سيان عندهم نصر الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله .

فلا ينبغى أن يكون فى الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقا عن دينه فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب.

ثم أم عليه السلام بجمع السبى والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة.

أما المشركون فتفرقوا ثلاثة فرق: فرقة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة وفرقة عسكرت بأوطاس [1].

سرية أبى عامر الأشعرى للحاق من فر من هوازن

فأرسل عليه السلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعرى فى جماعة منهم أبو موسى الأشعرى فسار إليهم وبددهم وظفر بما بقى معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر فى هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن اخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصوراً .

غزوة الطائف

وسار عليه السلام بمن معه إلى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوزان وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ومر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النصرى فأمر بهدمه ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن اخرج وإلا حرقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقة.

ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم فعسكر المسلمون قريب الحصن فرماهم المشركون بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبى بكر وقد طاوله جرحه حتى أماته فى خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب فقئت عينه، وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين.

ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن وضب لأم سلمة وزينب قبتان هناك واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً كان فيها ينادى خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن

(١) واد بديار هوازن .

آخرنا.

فأمر عليه السلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين [1] لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم.

فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً، فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم، فقال: أدعها لله وللرحم، ثم أمر من ينادى بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن فخرج إليه بضعه عشر رجلا.

لما رأى عليه السلام أن تمنع ثقيف شديد وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل ابن معاوية الديلى فى الذهاب أم المقام، فقال: يارسول الله ثعلب فى جحر إن قمت أخذته وان تركته لم يضرك، فأمر عليه السلام بالرحيل وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال: (اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم مسلمين).

تقسيم السبى

ثم رجع عليه السلام إلَى الجعرانة حيث ترك السبى فأحصاه وخمسة وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب إليهم الإسلام.

ومن الأولين أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد فقال له: بأبى أنت وأمى لأنت كريم فى السلم والحرب، ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبى سفيان فاستزاده فأعطاه مثلها، وقال: يا حكيم (إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى) .

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها، ثم قال: والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه.

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبه الجنود وهم داخلها .

وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الأبل، وكذلك الأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاه كان رآه يرمقه فقال له: هل يعجبك هذا؟ قال نعم، قال هو لك، فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد وكان سبب إسلامه [1] .

وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم وقد عاد ذلك بفائدة عظمى فإن كثيرين ممن أعطوا فى هذا اليوم لم يكونوا أشربوا فى قلوبهم حب الإسلام صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية ومعوية بن أبى سفيان والحرث بن هشام وغيرهم.

ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقى من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب وصاروا يقولون له: اقسم علينا حتى ألجأوه إلى شجرة فتعلق رداؤه فقال: (ردوا ردائى أيها الناس فوالله إن كان لى شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً) ثم قام إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال: (أيها الناس والله ما لى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول [2] يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة) فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيداً .

ثم شرع يقسم فأصاب لرجل أربعة من الأبل وأربعون شاة والفارس ثلاثة أمثال ذلك، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه وقال: (ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟!) فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه حاشاه عليه السلام من ذلك بل لم يزد على أن نصح وحذر.

وقال له عمر وخالد بن الوليد: دعنا يا رسول الله نضرب عنقه، فقال لا! لعله أن يكون يصلى، فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبة! فقال ﷺ : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم.

---

(١) لأن يهدى الله بك رجلا خير من الدنيا وما فيها .

(٢) الاختلاس من الغنيمة .

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معه غيرهم.

فلما اجتمعوا قال: يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتنى عنكم؟ ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بى؟ وعالة [1] فأغناكم الله بى؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بى؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة؟ وإنى أردت أن أخبرهم وأتألفهم، أغضبتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لا يزلزل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحلكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار. فبكى القوم حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قَسَماً وحظاً، ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا.

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسهم زهير بن صرد وقالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والعمات و الخالات وهن مخازى الأقوام ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وقال زهير: إن فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها:

امنن علينا رسول الله فى كـــرم ... فإنك المـــرء نرجـــوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك مملوءة من محضها الدرر
إنا لنشكر للنعماء إن كـــفرت ... وعندنا بعـــد هـذا اليوم مدخر
إنا نؤمــــــل عفواً منك نلبسه ... هــــدى البرية أن تعفو وتنتصر
فالبس العفو من قـد كنت ترضعه ... مـــن أمهاتك إن العفو مشـتهر

(1) جمع عائل وهو الفقير .

فقال ﷺ : إن أحب الحديث إلى أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبى وإما المال. وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا ولا نتكلم فى شاة ولا بعير.

فقال ﷺ : أما ما لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولو: نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا نحن إخوانكم فى الدين، ففعلوا. فقال ﷺ لأصحابه: (أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل) فقال المهاجرين والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله.

وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس وعُيينَة بن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضاً وأمر ﷺ بأن تحبس عائلة مالك ابن عوف النصرى رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أمية.

فقال له الوفد: أولئك سادتنا، فقال ﷺ : إنما أريد بهم الخير، ثم سأل عن مالك فقالوا: هرب مع ثقيف، فقال: أخبروه أنه إن جاءنى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الأبل، فلما بلغ ذلك مالكاً نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله، واستعمله عليه السلام على من أسلم مـن هوازن.

عمرة الجعرانة

ثم إن الرسول ﷺ اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمنا مطمئنا حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذى القعدة.

وغزوة حنين هى التى فرق الله بها جموع الشرك وأدال دولته وأفقد سراة أهله، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكنه الحرب إلا ساقته ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم فانكسرت حدة المشركين ولم يبق فيهم من يمانع أو يدافع ولذلك يمكننا أن نقول إن انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب فلم يبق فيهم إلا فئات قليلة يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

سرية قيس بن سعد إلى صداء باليمن

ولما رجع عليه السلام إلى المدينة أرسل قيس بن سعد فى أربعمائة ليدعو صداء (قبيلة تسكن اليمن) إلى الإسلام فجاء إلى رسول الله رجل منهم فقال: يا رسول الله إنى جئتك وافداً عمن ورائى فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فأمر عليه السلام برد الجيش.

وفود صداء

وخرج الرجل إلى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم فنزلوا ضيوفاً على سعد بن عبادة، ثم بايعوا رسول الله على الإسلام وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام وقدم على رسول الله منهم مائة فى حجة الوادع.

سرية بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب من خزاعة

ثم أرسل عليه السلام بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم فمنعهم بنو تميم المجاوران لهم من أداء ما فرض عليهم.

فلما علم بذلك رسول الله أرسل إليهم عيينة بن حصن فى خمسين فارساً من الأعراب فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً وتوجة بالكل إلى المدينة، فأمر عليه السلام بجعلهم فى دار رملة بنت الحارث

وفود تميم

فجاء فى أثرهم وفد تميم فيه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم فجلسوا ينتظرون الرسول فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جاف: يا محمد اخرج إلينا فإن مدحنا زين إ ن ذمنا شين، فخرج إليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم وفيهم نزل أوائل سورة الحجرات ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [1] وكان الوقت وقت الظهر فأذن بلال ودخل النبى للصلاة فتعلقوا به يقولون: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم عليه السلام: (ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا) ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر، فقال: إنه لمطاع فى أنديته سيد فى عشيرته، فقال الزبرقان: حسدنى يا رسول الله لشرفى وقد علم أفضل مما قال. فقال عمرو: إنه لزمن المروة ضيق الطعن لئيم الخال، فرئى الغضب فى وجه رسول الله لاختلاف قولى عمرو، فقال: يا رسول الله لقد صدقت فى الأولى وما كذبت فى الثانية رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت.

فقال عليه السلام (إن من البيان لسحراً).

ثم أسلم القوم فرد النبى عليه السلام أسراهم وأحسن جائزتهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون فى الدين.

سرية الوليد بن عقبة لأخذ صدقات بنى المصطلق

ثم بعث عليه السلام الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ صدقات بنى المصطلق، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة فى الجاهلية، فرجع مسرعاً إلى المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا

(١) سورة الحجرات الآيتان ٤ ، ٥ .

ومنعوا الزكاة فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر.

فسار إليهم فى عسكره خفية حتى إذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا طاعة، فرجع وأخبر الرسول فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات، وفى الوليد نزل فى أوائل الحجرات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١) .

سرية علقمة بن مجزز إلى جدة لقتال بعض الحبشة

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً رآهم أهل جدة فى مراكبهم يريدون الإغارة عليها فأرسل لهم علقمة بن مجزز فى ثلاثمائة، فذهب حتى وصل جدة ونزل فى المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين فى جزيرة هناك، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ولم يلق المسلمون كيداً فرجع علقمة بمن معه.

ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا وأمر عليهم عبد الله بن حذاقة السهمى، وكان فيه دعابة فأوقد لهم فى الطريق ناراً وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتى؟ قالوا: نعم، قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم فى هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار وهم بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله ، وقال: كنت مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال: (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق).

السنة التاسعة - سرية على بن أبى طلب لهدم صنم طئ

فى ربيع الأول أرسل عليه السلام على بن أبى طالب فى خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيئ) فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه « سفانة » بنت حاتم طيئ ولما رجع على إلى المدينة طلبت سفانه من رسول الله أن يمنَّ عليها فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام فدعت له وكان من دعائها (شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك

(١) سورة الحجرات الآية ٦ .

يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه) .

وفود عدى بن حاتم

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً فى إسلام أخيها عدى بن حاتم الطائى الذى كان فر إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين فى أمر هذا الرجل ؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل وإن يكن ملكاً فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأى.

فخرج حتى جاء المدينة ولقى رسول الله فقال عليه السلام: من الرجل؟ قال: عدى بن حاتم، فأخذه إلى بيته وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها، فقال عدى: والله ما هو بملك.

ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقدمها إلى عدى وقال: اجلس على هذه. فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الأرض.

ثم قال: يا عدى أسلم تسلم قلها ثلاثاً فقال عدى: إنى على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه لسلام: أنا أعلم بدينك منك، فقال عدى: أأنت أعلم بدينى منى؟ قال: نعم. ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح فى شئ كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم.

ثم قال: يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى الدين ما ترى، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لاقدرة لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة ؟ قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: فوالله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى

غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، فأسلم عدى رضى الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك.

غزوة تبوك

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه فى بلده وكان فى زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، فأمر عليه السلام بالتجهيز وكان قلما يخرج فى غزوة إلا ورى بغيرها ليعمى الأخبار على العدو إلا فى هذه الغزوة فإنه أخبر بمقصده لبعد الشقة ولشدة العدو ليأخذ الناس عدتهم لذلك، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك وحث الموسرين على تجهيز المعسرين فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً .

فقال ﷺ : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه. وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال ﷺ : وهل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية، وجاء العباس وطلحة بمال كثير. وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن.

وجاءه ﷺ سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأن لا يجدوا ما ينفقون. فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين.

ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً وولى على المدينة محمد بن مسلمة، وعلى أهله على بن أبى طالب وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبى وقال: يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد! .

يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ؟ والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال.

واجتمع جماعة منهم فقالوا فى حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الإرجاف فبلغه ذلك فأرسل إليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وجاء إليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذون عن الخروج فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لأنا لا نأمن من نساء بنى الأصفر، وجاء إليه المعذرون من الأعراب وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة ليؤذن لهم فأذن لهم، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم، وقد عتب الله عليه فى ذلك الإذن بقولة فى سورة براءة [1] : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [2] ثم قال فى حقهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [3] ثم كذبهم الله فى عذرهم قال: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [4] ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [5] .

وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون فى إسلامهم منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة.

ولما خلف ﷺ علياً قال المنافقون: قد استثقله فتركه، فأسرع إلى رسول الله وشكا له ما سمع، فقال ﷺ : « **أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى** » [6] .

ثم سار ﷺ بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق وفى إعطاء

---

(١) أى سورة التوبة وإنما سميت براءة لقوله تعالى فى أولها ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤٣ .

(٣) سورة التوبة الآية ٤٥ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤٦ .

(٥) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(٦) وتمام الحديث « . . إلا أنه لا نبى بعدى » .

ثم سار ﷺ بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق وفى إعطاء اللواء لأبى بكر آخر غزوة للرسول وتخليف علىّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارئ.

وفرق عليه السلام الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين، وأسيد بن حضير راية الأوس والحباب بن المنذر راية الخزرج، ولما مر الجيش بالحجر وهى ديار ثمود قال ﷺ لأصحابة: « لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون » ليشعر قلوبهم رهبة الله .

وكان مستعملاً على حرس الجيش عباد بن بشر، وكان أبو بكر يصلى بالجيش ولما وصلوا إلى تبوك وكانت أرضا لا عمارة فيها، قال الرسول ﷺ لمعاذ ابن جبل: يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملئ بساتين، وقد كان.

ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً وكان يوماً شديد الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ! ما هذا بالنصف، ثم قال والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لى زاداً ففعلتا. ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك.

وفود صاحب أيلة

هذا، ولم ير ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع فأقام هناك أياماً جاءه فى أثنائها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء (١) وأهل أذرح (٢) وأهل ميناء فصالح يوحنا رسول الله على إعطاء الجزية ولم يسلم، وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته.

---

(١) قرية فى جنوب الشام .

(٢) مدينة تلقاء السراة .

كتاب صاحب أيلة

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحوز ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) .

كتاب أهل أذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح وجرباء امنون بأمان الله وأمان محمد وإن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارها.

ثم إن الرسول استشار أصحابه فى مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال له عمر: إن كنت أمرت بالسير فسر. فقال عليه السلام: لو كنت أمرت بالسير لم أستشر، فقال: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ،فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة.

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها بلغ خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعه من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين وجاء جماعة منهم إلى الرسول طالبين منه أن يصلى لهم فيه فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله إن أردنا الا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه ويهدموه ففعلوا [1] .

(١) يقول تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ صدق الله العظيم . سورة التوبة الآية ١٠٧ .

هذا ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم.

حديث الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخرجى ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم، فلما دخل عليه كعب تبسم (الرسول ﷺ) تبسم الغضب وقال: ما خلفك ؟ فقال: يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أوتيت جدلاً ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب رضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط على فيه، ولئن حدثتك حديث صدق تغضب عليه فيه، إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر.

فقال عليه السلام: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك. وقال صاحباه مثل قوله لهما عليه السلام كما قال لكعب.

ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس.

وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم.

واستأذنت زوج هلال بن أمية فى خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى فتلقاهم الناس أفواجاً يهنؤنهم بتوبة الله .

فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً فقال أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، فقال: من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: بل من عند الله .

فقال كعب: يا رسول الله أن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة لله ولرسوله، فقال عليه السلام: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. ثم قرأ عليه السلام الآيات التى فيها توبته هو وصاحبيه فى سورة براءة ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ

خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [1].

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه السلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود الثقفى حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام فقال له: إنهم قاتلوك فقال: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم.

فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيه محبباً مطاعاً فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه.

وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة له بحرب من حولهم من العرب فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجلاً فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين إلى المدينة.

ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا، وكانوا يغدون إلى رسول الله كل يوم ويخلفون فى رحالهم أصغرهم سناً عثمان بن أبى العاص، فكان إذا رجعوا ذهب للنبى واستقرأه القرآن وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه.

ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص لما رآه من حرصه على الإسلام وقرآءة القرآن وتعلم الدين.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى

(١) سورة التوبة الآية ١١٨ .

رسول الله إلى المؤمنين إن عضاه وجّ [1] وصيده حرام لا يعضد شجرة ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهراً حتى يدخل الإسلام فى قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه فرضى بذلك عليه السلام، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنا وشرب الخمر والربا، فلما حلوا بلادهم جاءتهم ثقيف فقال الوفد: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف ودان الناس له فعرض علينا أموراً شديدة.. وذكروا ما تقدم.

فقالوا: والله لا نطيعه أبداً فقالوا لهم: أصلحوا سلاحكم ورموا حصونكم واستعدوا للقتال فأجابوا واستمرو على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم فقالوا: والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا: لم كتمتم علينا ذلك ؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان، فأسلموا.

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفى لهدم صنم ثقيف بالطائف فتوجهوا وهدموه حتى سووه بالأرض.

حج أبى بكر

وفى أخريات ذى القعدة أرسل عليه السلام أبا بكر ليحج بالناس فخرج فى ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدى عشرون بدنة أهداها رسول الله وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة فأرسل بها علياً ليبلغها الناس فى الحج الأكبر وقال: لا يبلغ عنى إلا رجل منى فلحق أبا بكر فى الطريق.

---

(١) الغضاه كل شجر له شوك الواحدة : عضاهة ، ووج : واد بالطائف .

فقال الصديق: هل استعملك رسول الله على الحج ؟ قال: لا ولكن بعثنى أقرأ أو أتلو براءة على الناس. فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم علىّ ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض كيف شاءوا وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم نادى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وكان على يصلى فى هذا السفر وراء أبى بكر رضى الله عنهما.

وفاة ابن أبى

وفى ذى القعدة مات عبدالله بن أُبى وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم تطل مثلها وشيع جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده عبد الله بن عبد الله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبى فيهم، وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم ﷺ

وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال جل شأنه فى سورة براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ (١) .

وفاة أم كلثوم

وفى هذه السنة تُوفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضى الله عنهما.

السنة العاشرة - سرية خالد بن الوليد إلى نجران لمحاربه بنى عبد المدان

فى ربيع الآخر أرسل عليه السلام خالد بن الوليد فى جمع لبنى عبد المدان بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم إلى الاسلام ثلاث مرات فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان فى كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم

(١) سورة التوبة الآية : ٨٤ .

ففعل.

وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم، وأمر عليهم زيد ابن حصين.

سرية على بن أبى طالب إلى بنى مذحج

وفى رمضان أرسل عليه السلام علياً فى جمع إلى بنى مذحج (قبيلة يمانية) وعممه بيده وقال: سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ولأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فلما انتهى إليهم لقى جموعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل فصف على أصحابه وأمرهم بالقتال فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلا ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقتنا فخذ منها حق الله ، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله فوافاه بمكة فى حجة الوداع.

بعث العمال على اليمن

ثم بعث عليه السلام إلى اليمن عمالاً من قبلة فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعرى على الكورة السفلى ووصاهما ﷺ بقوله: (يسراً ولا تعسراً وبشرا ولا تنفرا) وقال لمعاذ: (إنك ستأتى قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليله فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقه تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، أموالهم واتق دعوة فإن هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ فى حجة الوداع.

الفصل الثانى
الوداع

حجة الوداع

وفى السنة العاشرة حج ﷺ بالناس حجة ودع فيها المسلمين ولم يحج غيرها وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة، وولى على المدينة أبا دجانة الأنصارى، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً وأحرم للحج حيث انبعث به راحلته ثم لبى فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ولم يزل ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضُحى من الثنية العليا وهى ثنية كداء .

ولما رأى البيت قال: اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً ، ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة راكباً على راحلته، وكان إذا صعد الصفا يقول: لا إله إلا الله الله أكبر لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وفى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها.

خطبة الوداع

وفى التاسع منه توجه إلى عرفه وهناك خطب خطبته الشريفة التى بين فيها الدين كله أصله وفرعه وهاك نصها.

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن

تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ؟ ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانه فليؤدها الى من ائتمنه عليها. إن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به عمى العباس بن عبد المطلب، وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير. فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس إن النسئ [١] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو لقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن [٢] وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

---

(١) كانت العرب تحرم أربعة أشهر ، ثلاثه متواليات وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر لحاجتهم إلى الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفراً من العام المقبل فهذا هو الذى عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى فى عقيدتهم . راجع تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير عند قوله تعالى ﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر . . ﴾ الآية ٣٧ من سورة التوبة .

(٢) العضل : وهو الحبس والتضيق .

أيها الناس أنما المؤمنون إخوة ولا يحل لا مرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصيه فى أكثر من الثلث.

الولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله) .

وفى هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله فى سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (1) فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله على النعمة الكبرى.

ثم إنه عليه السلام أدى مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل إلى المدينة ولما رآها كبر ثلاثاً وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» .

الوفود

فى هذه السنة والتى قبلها كان وفود العرب إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام وكانوا يقدمون أفواجاً ، ولما فى أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة

(1) سورة المائدة الآية ٣ .

التى يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً وينير بصيرتك فنقول:

وفود نجران

ومن الوفود: وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختَّمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية للنبى ﷺ فلم يقبل البسط وقبل المسوح.

ولما جاء وقت صلاتهم صلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس، ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال عليه السلام: يمنعكم من الإسلام ثلاث، عبادتكم لصليب، أكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً ، فمن مثل عيسى خلق من غير أب، فأنزل الله فى ذلك فى سورة آل عمران: **﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**[1] وليظهر الله لهم أنهم فى شك من أمرهم أنزل: **﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾** [2] .

فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية، وهى ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب مع كل حلة أوقية من ذهب، ثم قالوا: أرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة [3] .

وفود ضمام بن ثعلبة

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة.

بينما رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء من أهل البادية ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول، فأناخ جمله فى المسجد ثم قال: أيكم ابن عبد

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦١ .

(٣) يقول ﷺ « سأرسل معكم أمينا حق أمين » .

المطلب ؟ فدلوه عليه فدنا وقال: إنى سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد [١] علىَّ فى نفسك، فقال: سل ما بدا لك، فقال: أنشدك بالله : الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال: نعم، فقال: أنشدك بالله الله أمرك أن نصلى خمس صلوات فى اليوم والليلة ؟ قال: اللهم نعم، فقال: أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهراً؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله الله أمرك أن نحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فإنى قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة. ولما ولى قال عليه السلام: فقه الرجل. ثم ذهب ضمام إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم [٢].

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس.

وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم: سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركائب وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس.

فلما أتوا ورأوا النبى ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج وكان أصغرهم سناً فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما ثم جاء يمشى هوناً حتى سلم على رسول الله وكان (الأشج) رجلاً دميماً ففطن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال يا رسول الله: أنه لا يستقى فى مسوك جلود الرجال وإنما الرجل بأصغرية قلبه ولسانه، فقال ﷺ : إن فيك خلتين يحبهما الله ورسـوله الحلم والأناة.

---

(١) أى لا تغضب .

(٢) وكان خير وافد على رسول الله ﷺ .

وقد قال ﷺ لهذا الوفد: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى. فقالوا: يا رسول الله نأتيك من شقة بعيدة [1] وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مصر وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل.

فقال: امركم بالإيمان بالله . أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس وأنهاكم عن الدباء [2] والحنتم [3] والنقير [4] والمزقت [5] والمراد بذلك ما ينبذ فى هذه الأوانى .

فقال الأشج : يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا فى مثل هذه وأشار إلى يده، فأومأ عليه السلام بكفيه وقال: يا أشج إن رخصت لك فى مثل هذه شربته فى مثل هذه وفرج بين يديه وبسطها حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف.

وإنما خص عليه السلام نهيهم بما ذكره لكثرة الأشربة بينهم.

وفود بنى حنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب وكان مسيلمة يقول: إن جعل لى الأمر من بعده اتبعته، فأقبل عليه السلام ومعه قيس بن شماس وفى يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال: إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها وإنى لأراك الذى منه رأيت.

وكان عليه السلام قد رأى فى منامه أن فى يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما فأوحى الله إليه أن انفخهما فنخهما فطارا فأولهما ﷺ كذابين يخرجان من بعده، فكان مسيلمة أحدهما والثانى الأسود العنسى صاحب صنعاء وقد أسلم بنو حنيفة.

---

(١) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج العربى وهى ديار ربيعة ، وبينهم وبين ربيعه الحجاز نجد .

(٢) القرع .

(٣) هو جرار مدعونه بدهان أخضر .

(٤) هو أصل النخلة ينقر .

(٥) ما طلى بالزفت وذلك لأن تلك الآنية يسرع فيها التخمر .

وفود طيئ

ومن الوفود وفد طيئ وفيهم زيد الخيل رئيسهم وقد قال ﷺ في حقه: ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل، وسماه ﷺ زيد الخير.

وفود كندة

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً في قومه. ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئاً وقالوا أخبرنا عما خبأناه لك فقال: سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن وإن الكاهن والتكهن في النار.

ثم قال: إن الله بعثني بالحق وأنزل على كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقالوا أسمعنا منه فتلا عليه السلام **﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾** [1] ثم سكت وسكن ودموعه تجري على لحيته فقالوا: إنا نراك تبكي، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟ قال: إن خشيتي منه أبكتني. بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت، ثم تلا **﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ۝٨٦ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾**[2] ثم قال لهم عليه السلام: ألم تسلموا؟ قالوا بلى، قال: ما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فعند ذلك شقوه وألقوه.

وفود أزد شنوءة

ومنهم وفد أزد شنوءة ورئيسهم صرد بن عبد الله الأزدي فأسلموا، وأمره عليهم وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١ إلى ٥ .

(٢) سورة الإسراء الآيتان ٨٦ ، ٨٧ .

وفود رسل ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم الحارث بن عبد كلال والنعمان ومعافر وهمدان، وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب إليهم النبى ﷺ .

كتاب ملوك حمير

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال وإلى النعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان.

أما بعد فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو.

أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة.

أما بعد: فإن محمداً النبى أرسل إلى زرعة بن ذى يزن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيراً : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً .

أما بعد فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله.

ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت من المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل.

وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وفود همدان

ومنها وفد همدان وفيهم مالك بن نمط، وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك عليهم مقطعات من الحبرات اليمنية والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله ﷺ.

حلفت برب الراقصات الى منى   صوادر بالركبان مـن هضب قردد

بأن رسول الله فينا مـصدق   رسول أتى من عند ذى العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها   أشـد علـى أعدائه من محمد

وقد أمره ﷺ على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول فى حق همدان نعم الحى همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد.

وفود تجيب

ومنها وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً منهم، معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسر بهم عليه السلام وأكرم مثواهم، قالوا: يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا، فقال عليه السلام: (ردوها فاقسموها على فقرائكم) فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا. فقال عليه السلام: إن الهدى بيد الله فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان.

وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد ﷺ رغبة فيهم ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل لهم: ما يعجلكم ؟ قالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إياه وما رد علينا.

ثم جاءوا إلى رسول الله فودعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود ثم قال لهم هل بقى منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه فى رحالنا وهو أحدثنا سناً، قال: فأرسلوه إلينا فأرسله فأقبل الغلام وقال: يا رسول الله إنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتى. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن

يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى. فقال عليه السلام: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

وفود ثعلبة

ومنها وفد ثعلبة ورد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالإسلام فسلموا عليه وقالوا: يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالإسلام وقد قيل لنا إنك تقول لا إسلام لمن لا هجرة له فقال عليه السلام: (حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم) ثم قال لهم: كيف بلادكم؟ فقالوا مخصبون، فقال: الحمد لله. ثم أقاموا فى ضيافته ﷺ أياماً، وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة.

وفود بنى سعد بن هذيم

ومنها وفد بنى سعد بن هذيم من قضاعة، قال النعمان منهم: قدمت على رسول الله وافداً فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب والناس صنفان إما دخل فى الإسلام راغب فيه وإما خائف السيف، فنزلنا ناحية من المدينة.

ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه فوجدنا رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم وقلنا حتى يصلى رسول الله ونبايعه.

ثم انصرف رسول الله فنظر إلينا فدعا بنا فقال: ممن أنتم؟ فقلنا: من بنى سعد بن هذيم فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا نعم، فقال: هلا صليتم على أخيكم؟.

قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك، فقال عليه السلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون.

قال: فأسلمنا وبيعنا رسول الله بأيدينا.

ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث عليه السلام فى

طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه ﷺ على الإسلام.

فقلنا يا رسول إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه.

قال النعمان: فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبى ﷺ له. ثم أجازهم وانصرفوا.

وفود بنى فزارة

ومنها وفد بنى فزارة وفد على رسول الله جماعة منهم مقرين بالإسلام وهم مسنتون فسألهم عليه السلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا، وجاعت عيالنا، فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك إليك.

فقال عليه السلام: سبحان الله، ويلك هذا، أنا أشفع إلى ربى فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه! لا إله إلا هو العلى العظيم وسع كرسيه السموات والأرض فهى تئط [1] من عظمته وجلاله كما يئط الرَّحْل.. الحديث، أى من ثقل الحمل.

ثم صعد عليه السلام المنبر ودعا الله عز وجل حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفود بنى أسد

ومنها وفد بنى أسد وفيهم ضرار بن الأزور وطليحة بن عبد الله الذى ادعى النبوة بعد ذلك فأسلموا وقالوا: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء ولم تبعث إلينا، فأنزل الله فى ذلك ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2].

وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون فى الجاهلية من العيافة [3]

---

(١) أى تصوت.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٧.

(٣) هى زجر الطير والتخرص على الغيب

والكهانة [1] وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله، ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال: علمه نبى فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا.

ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض وبعد ذلك ودعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا.

وفود بنى عُذْرة

ومنها وفد بنى عذرة ووفد بنى بلى، ووفد بنى مرة ووفد خولان وهى قبائل باليمن، وقد أمرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاوروا وأن لا يظلموا أحداً فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

وفود بنى محارب

ومنها وفد بنى محارب وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعوا القبائل إلى الله ، فما أعظم منة الله الذى أتى بهؤلاء - وكانوا ألد الأعداء - منقادين.

وفود غسان

ومنها وفد غسان ووفد بنى عبس ووفد النخع، وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق ويجيزهم بما يرضيهم، ويعلمهم الإيمان والشرائع ليعلموا من وراءهم وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب فى البوادى.

وفاة إبراهيم ابن النبى عليه السلام

وفى هذه السنة توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

السنة الحادية عشرة - سرية أسامة بن زيد إلى أبنى

لأربع بقين من صفر جهز عليه السلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد إلى أبنى[1] حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له: (سر إلى موضع قتل أبيك

---

(1) هى الإخبار عن الكائنات .

(2) محل قريب من مؤتة .

فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبنى وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك).

وكان مع أسامة فى هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد. ثم عقد عليه السلام لأسامة اللواء وقال له: اغز باسم الله فى سبيل الله وقاتل من كفر بالله .

وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً وخرج فقال.

أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طُعنتم فى تأميرى أباه من قبله؟! وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق بها، وإن كان لمن أحب الناس إلى وإنهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم.

ولم يتم لهذا الجيش الخروج فى عهد المصطفى ﷺ لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الأعلى.

وسيرى القارئ إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً فى كتابنا: إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء .

مرض الرسول ﷺ

لما تمم عليه الصلاة والسلام ما كلف به وأدى ما اؤتمن عليه وهدى الله به أمته، اختاره الله للرفيق الأعلى فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال:

(إن عبداً خيره الله بين أن يؤتية زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده).

فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

فقال عليه السلام: (إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام. لا يبقى فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبى بكر) .

وقد بدأه عليه السلام مرضه فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة فى بيت ميمونة واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان فى خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه.

ولما اشتد عليه المرض استأذن منهم أن يمرض فى بيت عائشة الصديقة فاذن له، ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال: هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلى أعهد إلى الناس، فأجلس فى مخضب [1] وصب عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتن ، وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التى كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه.

صلاة أبى بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فرضيه عليه السلام خليفة له فى حياته.

ولما رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول أطافوا بالمسجد فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فخرج ﷺ متوكئاً على علىّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبى معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال.

(أيها الناس بلغنى أنكم تخافو من موت نبيكم، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: **﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾**[2] وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** [3] .

---

(١) إناء يغسل فيه الثياب .

(٢) سورة العصر كلها .

(٣) سورة محمد الآية ٢٢ .

وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم من الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإنى فرط[1] لكم وأنتم لاحقون بى، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى) .

وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلى بهم إذا رسول الله ﷺ قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر رضى الله عنه على عقبه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وفاة رسول الله ﷺ :

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه وكان ذلك فى يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ هـ(٨ يونيو سنة ٦٣٣ م) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة، وثلاثة أيام، وإحدى وستين سنة شمسية وأربعة وثمانين يوماً.

وكان أبو بكر غائباً بالسنح وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بن زيد فسل عمر سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم، فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقلبه ويبكى ويقول: توفى والذى نفسى بيده. صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين.

ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (ألا من كان يعبد محمداً فإن

(١) أى سابقكم إلى لقاء الله تعالى .

محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) وتلا قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [1] وقوله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [2] .

قال عمر: فكأني لم أتل هذه الآية قط.

ثم مكث عليه الصلاة والسلام فى بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم فغسل دفن.

وكان الذى يغسله على بن أبى طالب، ويساعد العباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة.

ولما فرغوا من تجهيز وضع على سريره فى بيته ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ثم حفر له لحد فى حجر عائشة حيث توفى وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبرة بلال بالماء ورفع قبره عن الأرض قدر شبر.

توفى رسول الله ﷺ وترك فى المسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شئ كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [3] .

وترك أصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الإسلامى القويم حتى يتم الله كلمته ويحق وقد فعل، فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى.

*****

(١) سورة الزمر الآية ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

الفصل الثالث

شمائل الرسول ﷺ ومعجزاته

شمائله عليه السلام

منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده، ولا بد أن نأتى لك فى هذا الباب بنبذه يسيرة من محاسن صفاته وأحسن آدابه لتكون لك نموذجاً تسير عليه حتى تكون على قدم نبيك ﷺ فتستحق الحمد فى الدنيا والذخر فى الأخرى.

فاعلم أرشدنى الله وإياك وهدانا للصراط السوى أن خصال الجلال والكمال فى البشر نوعان: ضرورى دنيوى اقتضته لجبلة وضرورة الحياة ومكتسب دينى وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله زلفى.

فأما الضرورى فما ليس للمرء فيه اختيار. ولا اكتساب مثل ما كان فى جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصحة اللسان وقوة الحواس والأعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الأرض ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه.

أما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهى التى يجمعها حسن الخلق.

فإذا نظرت رعاك الله إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزا لجميعها محيطاً بشتات محاسنها.

(١) ترك أيضاً ﷺ سننه الشريفة سعادة لمن تبعها .

فأما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه فى حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه ﷺ كان أزهر اللون [١] ادعج [٢] أنجل [٣] أشكل [٤] أهدب الأشفار [٥] أبلج [٦] أزج [٧] أقنى [٨] أفلج [٩] مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية تملء صدره، سواء لبطن عظيم الصد عضيم المنكبين [١٠] ضخم العظام عبل[١١] العضدين والذراعين والأسافل رحب الكفين والقدمين سائل الأطراف أنور المتجرد دقيق المسربة [١٢] ربعة القد ليس بالطويل البائن [١٣] ولا القصير المتردد [١٤] ومع ذلك فلم يكن يماسيه أحد بنسب إلى الطول إلا طاله ﷺ . رجل الشعر إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رئى كالنور يخرج من بين ثناياه، أحسن الناس عنقاً ليس مبطهم [١٥] ولا مكلثم [١٦] متماسك البدن ضرب اللحم [١٧] .

قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذى لمة [١٨] سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ .

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه وإذا ضحك يتلألأ فى الجدر. وفى حديث ابن أبى هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

---

(١) نير اللون .
(٢) شديد سواد الحدقة مع سعتها .
(٣) واسع العين مع جمال .
(٤) فى بياض عينيه حمرة .
(٥) كثير شعر الأجفان .
(٦) مضىء الوجه .
(٧) دقيق الحاجبين فى طول واستواء .
(٨) مرتفع قصبة الأنف مع أحديداب يسير .
(٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات .
(١٠) المنكب مجمع رأس العضد والكتف .
(١١) ضخم .
(١٢) المسربة شعر دقيق يمتد من الصدر إلى البطن .
(١٣) أى ليس مفرط الطول بل معتدله .
(١٤) أى المتناهى فى القصر .
(١٥) اى البائن الكثير اللحم .
(١٦) المكلثم صغير الذقن .
(١٧) يقال رجل ضهرب خفيف اللحم ممشوق القد ، وماضى فى الأمور خفيف فى قضاء الحاجة .
(١٨) اللَّمَّة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن والجمع لِمَم ولِمَام .

وقال على فى آخر وصفه له: من راه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

وأما نظافه جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى فى ذلك بخصائص لم توجد فى غيره ثم أتمها بنظافة الشرع. قال عليه السلام: بنى الدين على النظافة، وقال أنس: ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله.

وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده قال فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجهما من جؤنة عطار.

قال غيره. مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها يضع يده على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان بريحها، وروى البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبى ﷺ يمر فى طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه.

وأما وفور عقله ﷺ وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائلة فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم.

ومن تأمل دبيره أمر بواطن الخلق وظاهرهم وسياسته للعامة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاد من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سابق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة.

وكان عليه السلام إذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه وبذلك فسر قوله تعالى ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾.

وقالت عائشة: كان عليه السلام يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء وكان يعد فى الثريا أحد عشر نجماً، وجاءت الأخبار أنه صرع ركانة أشد أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ فى مشيه كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث.

وفى صفته عليه السلام أن ضحكه كان تبسماً، إذا التفت التفت معا [١] وإذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صبب [٢].

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل: سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع وفصاحة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف، أُوتَى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه.

وليس كلامه مع قريش ككلامه مع قبائل حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجد، بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ وانتهجته من طرق البلاغة ليبين للناس ما نزل إليهم وليحدث الناس بما يعلمون.

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة وبلاغة.

كقوله: « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

وقوله: « الناس كأسنان المشط، والمرء مع من أحب، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له، والناس معادن، وما هلك امرؤ عرف قدره، والمستشار مؤتمن، ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم».

وقوله « أسلم تسلم واسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

---

(١) أى التفت بكل جسده الشريف ﷺ .
(٢) أى ينزل من مكان مرتفع .

«وإن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ». وقوله: « لعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه »، وقوله: « ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله ».

«ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعه المال ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات» .

وقوله: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن، وخير الأمور أوسطها».

وقوله: « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ».

وقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة ».

وقوله فى بعض دعائه: « اللهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى وتجمع بها أمرى، وتلم بها شعثى، وتصلح بها رغائبى وتزكى بها عملى وتلهمنى بها رشدى، وترد بها ألفتى وتعصمنى بها من كل سوء، اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ونزول الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ».

إلى غير ذلك مما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز سبقاً لا يقدره قدره.

وقد قال أصحابه: ما رأينا الذى هو أفصح منك فقال: وما يمنعنى وإنما نزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين، وقال مرة أخرى: بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد. جمع بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشر.

وأما عظم نسبه وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولا خفى منه، فإنه نخبة بنى هاشم ونخبة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.

وقد قدمنا لك فى أول الكتاب ما فيه الكفاية فى هذا المقام.

أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة فمنه ما الفضل فى قلته ومنه ما الفضل فى كثرته ومنه ما تختلف الأحوال فيه، فالأول كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره، وغلبه الشهوة مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس [1] وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة وملك النفس، وقمع الشهوة مسبب للصحةوصفاء الخاطر وحدة الذهن، كما أن النوم دليل على الغسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة مسبب الكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته، وكان عليه السلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحض عليه. قال عليه السلام: (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) . ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

وقالت عائشة رضى الله عنها: لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعاً قط وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يشتهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب. وفى صحيح الحديث: (أما أنا فلا آكل متكئا) والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد فى الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته [2] ، والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل ويستكثر منه والنبى عليه السلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً ويقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال: إن عينى تنامان ولا ينام قلبى.

وأما ما الفضل فى كثرته فكالجاه وهو محمود عند العقلاء عادة بقدر جاهه عظمه فى القلوب وقد قال تعالى فى صفة عيسى عليه السلام﴿ **وجيهاً فى الدنيا والآخرة** ﴾.

وكان النبى ﷺ قد رزق الحشمة والمكانة فى القلوب والعظمة قبل النبوة

(١) الخثارة : الإحساس بالفتور والتكسر .

(٢) وإنما كان يجلس متحفزا لا متمكنا من القعود .

عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبون ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه فى أنفسهم خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته كما ذكرنا ذلك مراراً ، وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روى عن قيلة إنها لما أرعدت من الفرق فقال: يا مسكينة عليك السكينة.

وفى حديث أبى مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال عليه السلام: هون عليك فإنى لست بملك.

وأما عظيم قدره بالنبوة وشريف منزلته بالرسالة وإناقة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات فى التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال فصاحبه على الجملة معظم عند العامة لاعتقادها أنها توصله به إلى حاجاته وتمكنه فى أغراضه وإلا فليس فضيلة فى نفسه.

فمتى كان بهذه الصورة وصاحبه منفقاً فى مهمات من قصده وأمله يصرفه فى مواضعه مشترياً به المعالى والثناء الحسن والمنزلة فى القلوب، كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا.

وإذا صرفه فى وجوه البر وأنفقه فى سبيل الخير وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل بكل حال.

ومتى كان صاحبه ممسكاً له غير موجهه وجوهه حريصاً على جمعه عاد كثرته كالعدم وكان منقصة فى صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل أوقعه فى وهده رذيلة البخل ومذمة لنذالة.

فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به إلى غيره وتصريفه فى متصرفاته، ونبينا ﷺ أوتى خزائن ومفاتيح البلاد وأحلت له الغنائم وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاته وهاداه جماعه من ملوك الأقاليم فما استأثر بشئ منه ولا أمسك منه درهماً ، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال: (ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً يبيت عندى منه دينار إلا ديناراً أرصده

لديني) .

وأتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال: الآن استرحت.

ومات ودرعه مرهونه في نفقة عياله.

واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه وزهد فيما سواه فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر.

فأنت ترى أن رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه وإنفاقه على مستحقيه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهي المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبيناﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها حتى أثنى الله تعالى بذلك فقال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.

قالت عائشة: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

وقال عليه السلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وقال أنس: كان عليه السلام أحسن الناس خلقاً ، . وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لإخوانه من الأنبياء جبلة خلقوا عليها ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله عليهم وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية ولا ممارسة.

وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ولكنا نذكر أصولها ونشير إلى جميعها نحقق وصفه عليه السلام بها إن شاء الله .

فأصل فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها العقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي وجودة الفطنه والإصابة وصدق الظن والنظر

للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل. وقد بلغ عليه السلام منه ومن العلم الغاية التى لم يبلغها بشر سواه.

يعلم ذلك من تتبع مجارى أحواله واطراد سيره وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسات الأنام وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفسية والشيم الحميدة إلى فنون العلم التى اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشاراته حجة كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا الجلوس إلى علمائهم بل نبى أمى لا يعرف شيئا من ذلك حتى شرح الله صدره وأبان أمره وعلمه وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام إلى سائر ما علمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [1].

وأما الحلم الاحتمال والعفو والقدرة والصبر على ما يكرهه فمما أدب الله به نبيه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [2] وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك، وقال له ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3] وقال ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4] وقال﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [5].

وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه السلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة ونبينا لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً. قالت عائشة رضى الله عنها: ما خير عليه السلام فى أمرين قط الا اختر أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله .

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .
(٣) سورة لقمان الآية ١٧ .
(٤) سورة النور الآية ٢٢ .
(٥) سورة الشورى الآية ٤٣ .

ولما فعل به المشركون ما فعلوا فى أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

وحسبك فى هذا الباب ما فعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزأوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيره من مشركى العرب حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال: ما تقولون إنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وعن أنس: كنت مع النبى عليه السلام وعليه بُرد غليظ الحاشية فجذبه أعرابى بردائه جذبه شديدة حتى أثرت حاشية البر فى صفحة عنقة ثم قال: يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبى ثم قال: المَال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى، قال: لا، قال لم ؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير والآخر تمر.

قالت عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما ضرب خادماً ولا امرأة.

فصلى الله تعالى عليه وأقر عينه باتباع المسلمين سنته.

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة: فكان عليه السلام لا يوازى فى هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى، وصفه بهذا كل من عرفه، قال جابر رضى الله عنه: ما سئل عليه السلام عن شئ فقال لا، وقال ابن عباس: كان عليه السلام أجود الناس بالخير وأجود ما كان فى شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وقالت خديجة فى صفته عليه السلام مخاطبة له: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم [1] وحسبك شاهداً فى هذا الباب ما فعله مع هوزان من رد السبى إليها وما

(١) وتعين على نوائب الحق . قالت له ذلك عندما أخبرها ببدء الوحى إليه ﷺ .

فعله يوم تقسيم السبى من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الأعطية وقد استوفينا ذلك فى موضعه.

وحُمل إليه عليه السلام تسعون ألفاً فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شيء قضيناه [1] . فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره ذلك عليه السلام فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا، فتبسم عليه السلام وعرف البشر فى وجهه وقال: بهذا أمرت. والأخبار بجوده وكرمه عليه السلام كثيرة يكفى منها لتعليمك ما ذكرناه.

ومنها الشجاعة والنجدة فكان عليه السلام منهما بالمكان الذى لا يجهل قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع الا أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه.

وحسبك ما فعله فى حُنين وأُحد مما ذكرناه مستوفى.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ ، وقال على: إنا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب الى العدوّ منه، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

وقال أنس: كان عليه السلام أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقة وهو يقول: لن تراعوا.

وأما الحياء والإغضاء: فكان عليه السلام أشد حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء ، وقال أبو سعيد الخدرى: كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه، وكان عليه السلام لطيف البشرة رقيق

(١) أى اشترى على حسابنا آجلا .

الظاهر لا يشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس. قالت عائشة: كان عليه السلام إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ؟ ينهى عنه ولا يسمى فاعله، وقالت رضى الله عنها: لم يكن عليه السلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال على رضى الله عنه: كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة وكان عليه السلام يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، فدوسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الخلق سواء، بهذا وصفه ابن أبى هالة.

وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه قال تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ (1) وقال تعالى ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (2).

وكان عليه السلام يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ويكافئ عليها، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر.

وقال أنس: ما التقم أحد أذن النبى يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل

(1) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .
(2) سورة فصلت الآية ٣٤ .

هو الذى ينحى رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بها على أحد، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى، ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهى أو قيام وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

وأما الشفقة والرأفة والرحمة: بجميع الخلق فقد وصفه الله بها فى قوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) وقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢) روى أعربياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال: أأحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً ثم قال: أأحسنت اليك ؟ فقال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه السلام: إنك قلت ما قلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك. قال: نعم، فلما كان الغد أو العشى جاء فقال عليه السلام: إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ قل: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال عليه السلام: مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار.

وقال عليه السلام: لا يبلغنى أحد منكم عن أصحابى شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. وكان يسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته وعن

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الانبياء الآية ١٠٧ .

ابن مسعود كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وأما خلقه عليه السلام فى الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فروى عن عبد الله بن أبى الخمساء قال. بايعت النبى عليه السلام ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو مكانه، فقال: يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك ! وكان إذا أتى بهدية قال: اذهبوا بعا إلى بيت فلانه فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة.

وكان عليه السلام يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نكفيك ؟ فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم.

وفى حديث خديجة: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق.

وأما تواضعه عليه السلام على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعاً ، وأقلهم كبراً وحسبك أنه خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً .

وخرج عليه السلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا، فقال: " لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً، وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد.

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصدقائه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس.

وقال عليه السلام: (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفه ما تساوى أربعة دراهم فقال: اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة.

هذا وقد فتحت عليه الأرض وأهدى فى حجة هذا مائة بدنة، ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: دخلت السوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل وقال للوازن زن وأرجح، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعجم بملوكها ولست ملكاً إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله قال: صاحب الشئ أحق بشيئه أن يحمله.

وأما عدله عليه السلام وأمانته وعفته وصدق لهجته: فكان آمن الناس وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محادوه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين، وقد قدمنا ذلك فى سيرته عليه السلام قبل النبوة.

وفى الحديث عنه عليه السلام: ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها.

قال أبو العباس المبرد قسم كسرى أيامه فقال: يوم الريح يصلح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للهو والشرب، ويوم الشمس للحوائج.

لكن نبينا عليه السلام جزأ نهاره أجزاء جزء لله وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزأه بين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول: (أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى فإن من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر).

وكان عليه السلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد ولا يصدق أحداً على أحد.

وأما وقارة عليه السلام وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان عليه السلام أوقر الناس فى مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان إذا جلس احتبى[1] بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً.

وكان كثير السكوت لا يتلكم فى غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان كلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان يضحك أصحابه عند التبسم توقيراً له واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تلكم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير.

وقال ابن أبى هالة: كان سكوت ﷺ على أربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكير.

---

(١) يقال احتبى : جلس على أليته وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند .

قالت عائشة رضى الله عنها: كان ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه.

وكان يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملها كثيراً ويحض عليهما.

ومن مروءته ﷺ: نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلى، والأمر بالسواك وإنقاء البراجم والرواجب (مواصل الأصابع من ظاهر الكف وباطنها).

وأما زهده عليه السلام: فقد قدمنا لك ما فيه الكفاية، وحسبك شاهداً على تقلله من الدنيا وإعراضه عن زهرتها وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفى عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله وهو يدعو ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله، وقالت: ما ترك عليه السلام ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولقد مات وما فى بيتى شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى.

وقال: إنى عرض علىّ أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك.

وقالت عائشة: أن كنا ال محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا التمر والماء، وعن أنس: ما أكل عليه السلام على خوان ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقق ولا أرى سميطاً قط.

وفى حديث عائشة: كان فراش رسول الله فى بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع؟ فلما أصبح قال: ما فرشتم لى؟ فذكرنا له ذلك فقال: ردوه بحاله فإن وطأته منتعتنى الليلة صلاتى.

وقالت عائشة: لم يمتلئ جوف النبى عليه السلام شبعاً ولم يبعث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعاً يتلوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها

ورغد عيشها، ولقد كنت أبكى مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول لنفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك، فيقول: يا عائشة ما لى وللدنيا إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم، وما من شئ أحب إلى اللحوق بإخوانى وأخلائى. قالت: فما أقام بعد إلا أشهراً حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه.

وأما خوفه من ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه، ولذلك قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت (صوتت) السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك اضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددت أنى شجرة تعضد.

وكان عليه السلام يصلى حتى ترم قدماه فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)! .

وقالت عائشة رضى الله عنها كان عمل رسول الله ﷺ ديمة وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ .

وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم.

وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى فقمت معه فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا مر بآية عذاب إلا وقد وتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك: وقال بعضهم: أتيت رسول الله وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل.

فى وصف بن أبى هالة: كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة.

وعن على رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال:

ﷺ المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى وقرة عينى الصلاة وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لأجل أمتى وشوقى إلى ربى) فجزاه الله من نبى عن أمته خيراً.

ورحم الله عبداً تأمل فى هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها واتبع رسول الله ﷺ ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين.

معجزاته عليه السلام

إذا تأمل المتأمل ما قدمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم وحميده سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمة وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يتمر فى نبوته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد فى إسلامه والإيمان به كعبد الله بن سلام فإنه قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وروى مسلم أن ضماداً لما وفد عليه قال له ﷺ (إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله) فقال له ضماد: أعد على كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك.

ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله عليه السلام يدعوه إلى الإسلام قال: والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شئ إلا كان أول تارك له وإنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود وأشهد أنه نبى، وقال ابن رواحة:

لو لم تكن فـيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخطر [1]

كيف وقد أظهر الله على يده صديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفى به العد

(١) أى بحاله وشانه .

فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهاناً ، وسنذكر لك فى هذا الفصل من الآيات ما تقر به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون فى صحاحهم ونبدأ منها بأظهرها شأناً وأوضحها بياناً وهو القرآن الشريف وإعجازه.

اعلم أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة.

الوجه الاول ـ حسن تأليف والتئام كلمه وفصاحته ووجه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب. وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب فيخطبون بديهاً فى المقامات ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان ويصيرون الناقص كاملاً ويتركون النبيه خاملاً .

منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى.

ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية، . وكلاهما له فى البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع الناهج لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها علوا صرحاً لبلوغ أسبابها فقالوا من كل باب من أبوابها علوا صرحاً لبلوغ أسبابها فقالوا فى الخطير والمهين وتفننوا فى الغث والسمين وتقاولوا فى القل والكثر وتساجلوا فى النظم والنثر.

فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل معقول وتضافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتبارت فى الحسن مطالعة وحوت كل البيان مجامعة وبدائعه واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائدة مختار لفظة.

وهم أفصح ما كانوا فى هذا الباب مجالاً وأشهر فى الخطابة رجالاً وأكثر فى الشعر والسجع ارتجالاً وأوسع فى الغريب واللغة مقالاً بلغتهم التى بها يتحاورون ومنازعهم التى عنها يتناضلون صارخاً بها فى كل حين ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً على رءوس الملأ أجمعين ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [١] وقوله ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ [٢] ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [٣] ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [٤].

فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاعتزاز بالافتراء وقولهم ﴿ **إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين** ﴾ والمباهتة والرضا بالدينة كقولهم: ﴿**قلوبنا غلف**﴾ [٥] وقولهم: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ [٦] .

---

(١) سورة يونس الآية ٣٨ .
(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٨٨ .
(٤) سورة هود الآية ١٣ .
(٥) وردت فى موضعين من القرآن الكريم ﴿ وقالوا قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ سورة البقرة الآية ٢٨٨ و﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ سورة النساء الآية ١٥٥ .
(٦) سورة فصلت الآية ٥ .

وقولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١).

والادعاء مع العجز كقولهم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ (٢) وقد قال لهم: ﴿ولن تفعلوا ﴾ فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم والألم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين وأتوا إليه مذعنين وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (٣) وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤) وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٥) وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦) وقوله: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧) .

وأشباهها من الآى.

بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها، وإن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمة وعلوماً زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها وكثرة المقالات فى المستنبطات عنها.

ثم هو فى سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التى يضعف فى عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأملة من ربط الكلام بعضه

(١) سورة فصلت الآية ٢٦ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٣١ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩ .
(٤) سورة سبأ الآية ٥١ .
(٥) سورة فصلت الآية ٣٤ .
(٦) سورة هود الآية ٤٤ .
(٧) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وتناصف فى الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معادة لمعادها.

الوجه الثانى ـ من إعجاز القرآن : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آية وانتهت فواصل كلماته إليه ولم يوجد قبلة ولا بعده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شئ منه بل حارثت فيه عقولهم وتدلهت دونه أحلامهم ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر، والإعجاز بكل واحد منهما نوع إعجاز لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها.

الوجه الثالث ـ من الاعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذى أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [1] .

وقوله عن الروم ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [2].

وقوله ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ [3].

وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[4].

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[5].

فكان جميع هذا كما أخبر فغلبت الروم فارس ودخلت فى الدين أفواجاً واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم فى وقت من أقصى بلاد الأندلس غرباً إلى

(١) سورة الفتح الآية ٢٧ .
(٢) سورة الروم الآيتان ٣ ، ٤ .
(٣) سورة التوبة الآية ٣٣ .
(٤) سورة النور الآية ٥٥ .
(٥) سورة النصر الآيتان ١ ، ٢ .

أقاصى الهند شرقاً ومن بلاد الاناضول شمالا إلى أقاصى السودان جنوبا.

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) فكان كذلك إلى الان والحمد لله.

وقوله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (٢) فكان كذلك فى بدر والآية نزلت بمكة.

وقوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (٣) فكان كذلك مما اطلع عليه قارئ هذه السيرة وكما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم فى حلفهم كقوله ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (٤).

وقوله ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ (٥) وقوله ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ (٦) إلى غير ذلك من الآيات البينات.

الوجه الرابع ـ ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم من القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده عليه السلام على وجهه ويأتى به على نصه فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه و إن مثله لم ينله بتعليم وقد علموا أنه ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة لم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم، كثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً كقصص الأنبياء وبدء الخلق وما فى الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفة بعد أن قرعهم ووبخهم بقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢).

ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحداهم فيه الله بقوله ﴿قُلْ

(١) سورة الحجر الآية ٩ .
(٢) سورة القمر الآية ٤٥ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٤ .
(٤) سورة المجادلة الآية ٨ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .
(٦) سورة النساء الآية ٤٦ .
(٧) سورة آل عمران الآية ٩٣ .

إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (١) .

ثم حتم عدم إجابتهم بقوله : ﴿ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ﴾ (٢) فما سمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه. ومثل ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا وقد قدمنا ذلك فى فصل وفودهم.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التى تلحق قلوب سامعيه والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وأنافة خطرة حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً ولهذا قال ﷺ : إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به. قال تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ (٤) .

ومن وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظة فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٥) وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (٦) .

وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضة ممتنعة والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذه البراعة والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع عتيد فما منهم من أتى بشئ يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين فى مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه فى ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه فى العجز بيديه والنكوص على عقبيه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٩٥ .
(٣) سورة الزمر الآية ٢٣ .
(٤) سورة الحشر الآية ٢١ .
(٥) سورة الحجر الآية ٩ .
(٦) سورة فصلت الآية ٤٢ .

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه السلام فى القرآن قال : إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد [1] ولا تنقضى عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن حكم به أقسط ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب.

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر، وقد قدمنا حديثه مستوفى.

ومن معجزاته ﷺ نبع الماء بين أصابعه وتكثيره ببركته، وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابه منهم أنس وجابر وابن مسعود قال أنس : رأيت رسول الله ﷺ وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى النبى ﷺ عليه وسلم بوضوء فوضع فى الإناء يده وأمرالناس أن يتوضأوا منه.

قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم فقيل : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة.

وقال ابن مسعود : بينما نحن مع النبى ﷺ وليس معنا ماء فقال لنا: اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه فى إناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، وقال جابر : عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركو فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا : ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك فوضع يده فى الركوه فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون قيل ؟ كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشر مائة.

وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ومثل هذا المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به لأنهم كانوا أسرع شئ إلى تكذيبه لما جبلت عليه نفوسهم من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قدروا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر عليهم أحد من الناس

(١) أى لا يبليه .

ما حدثوا به عنهم أنهم فعله وشاهدوا فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته كما ورد عن معاذ ابن جبل فى قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهى تلمع بشئ من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فى شئ ثم غسل عليه السلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس، وفى رواية ابن إسحاق فانخرق من الماء ماله حسن كحس الصواعق ثم قال : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملئ جناناً .

وقد قدمنا ذلك فى غزوك تبوك وروى عن البراء وسلمة بن الأكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه السلام. وروى أبو قتادة أن الناس شكوا إلى رسول الله فى بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها فى صبنه (ما بين الكشح إلى الإبط)ثم التقم فمها فالله أعلم أنفث فيها أم لا، فشرب الناس حتى رووا وملأوا كل إناء معهم فخيل لى أنها كما أخذها منى وكانوا اثنين وسبعين رجلاً .

ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم فى محال مختلف بحيث لا يشك أحد فى صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

ومن ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ روى طلحة أنه عليه السلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه فأمر بها عليه السلام ففتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول، وروى جابر أنه عليه السلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق وقال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبر، وكان عليه السلام قد بصق فى العجين والبرمة وبارك.

وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبى بكر طعاماً يكفيهما فأطعم منه عليه السلام مائة وثمانين رجلاً.

وروى مثل ذلك كثير من الصحابة، كعبد الرحمن بن أبى بكر، وسلمة ابن الأكوع، وأبى هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن معجزاته ﷺ قصة حنين الجذع، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان عليه السلام إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار وفى رواية أنس : حتى ارتج المسجد لخواره.

وفى رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوه به. وفى رواية المطلب وانشق حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت، زاد غيره : فقال عليه السلام إن هذا بكى لما فقد من الذكر وزاد غيره : والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزناً على رسول الله فأمر به فدفن تحت المنبر، وهذا الحديث خرجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون ورواه عنهم من التابعين ضعفهم وبمن عدتهم يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب، والله المثبت على الصواب.

ومن معجزاته عليه السلام إبراء المرضى وذوى العاهات فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها عليه السلام فكانت أحسن عينيه وأحدهما وبصق على أثر سهم فى وجه أبى قتادة فى يوم ذى قرد فما ضرب عليه ولا قاح.

وأصاب ابن ملاعب الأسنة استسقاء فبعث إلى النبى عليه السلام فأخذ بيده حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها يرى أنه قد هزئ به فأتاه بها على شفا الموت فشربها فشفاه الله وتقدم حديث على ورمده فى غزوة خيبر وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عده ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

أما ما منحه الله إياه من إجابة دعواه فروى عن أنس بن مالك قال : قالت أمى أم سليم يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته قال أنس : فوالله إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليعادون اليوم نحو المائة.

ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانون [1] ألفاً .

---

(١) والمعلوم أن الزوجة أو الزوجات ما لهن إلا ثمن التركة إذ كان للمورث ولد .

وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شئ فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها.

ودعا لمعاوية بالتمكن فى الأرض فنال الخلافة.

ودعا لسعد بإجابة الدعوة فما دعا على أحد إلا استجيب له.

وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعز الإسلام به.

وقال لأبى قتادة : أفلح وجهك اللهم بارك فى شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشرة.

ودعواته عليه السلام المستجابة أكثر من أن تحصى يطلع عليها قارئ سيرتنا هذه.

أما ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان فعن حذيفة رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه وما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوه والله ما ترك عليه السلام من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا اسمه واسم أبيه واسم قبيلته.

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما علم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله وأن المدينة ستغزى ويفتح خيبر على يد علىّ فى يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر.

وقدمنا كثيراً من ذلك فى هذه السيرة وقدمنا ما فى القرآن من ذلك وهذا يغنينا عن الإطالة فى هذا المقام فحسبك ما سمعت.

ومما ينير بصيرتك أيها القارئ ما مَن الله به على رسولنا من عصمته له من

الناس وكفايته من آذاه قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [1] وقال ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [2] وقال ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقال ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [3] .

ولما نزل ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ صرف حجابه [4] وقال انصرفوا فقد عصمنى الله ، وقد قدمنا حديث دعثور وإرادته قتل النبى ﷺ وعصمة الله لنبينا.

وذكرنا كثيراً مما حصل من أبى جهل لما أراد الرسول المكايدة فكفاه الله شره وما من الله به عليه ليلة الهجر، وحديث سراقة فى الطريق، وعلى الجملة فكفينا من هذا الباب أنه عليه السلام مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه ﷺ ، بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى أظهر وتممه.

والحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده.

ونسألة أن يوقف قارئ هذه السيرة إلى اتباع رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وأنصاره.

تم الكتاب بعون الله

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٢) سورة الطور الآية ٤٨ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٥ .

(٤) المقصود به من كان يحرسه ﷺ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة